رواية
حُر انفرادى
محمد عزام

حُر انفرادی

محمد عزام

الطبعة الأولى 2023
ISBN: 9789189288621
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 02-18 2023-04-26
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
البريد الإلكتروني:
digitizethearabicbook.com

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.
© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. المؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

استدار للخلف، ما زالت تراقبه في غرفته المغلقة، هو الآمر لها.. هو سيدها، سيُنهِ حياتها بيديه التي علقتها لتراقبه، قذف في وجهها حذاؤه! لم يسلم من سخريتها، صورته تتكاثر وتنمو في تحدٍ لكسرها، مرآة تُعاند من علقها واستغلها في الليل والنهار، الآن لا مفر من إزاحتها عن جدار الغرفة، هو يصر على التحدي وإن كانت مرآته المهشمة، نظر من خلال نافذته المغلقة، لا احد بالشارع، كل الأمان فيما يريد فعله وقذفها لتكون موتتها الأولى ولتذهب إلى الآخرة، يداه تخونه ترتعش لا تستطع المساس بها أو الاقتراب منها، لم يجد حيلة غير أن يرحل قبل سماع ضحكات سخريتها منه، أغلق الباب المغلق، في ذل الهزيمة وإن كانت أمام مرآته المحطمة.

قفز على درجات السلم الغائب عنه من يوم مولده يتمنى أن يصل وقع خطواته إلى من تركها تسخر منه، ها هو يقفز ويمرح ولن توقفه مرآته الساخرة، التفت إلى الشارع، ما زال كما رآه من خلال النافذة، الحوانيت المغلقة، كم يحب هذه الحالة التي يراها بالليل والنهار, عرج إلى أصحابه الغائبين، لم

يتبرم من الحديث المتكرر في كل الأوقات، لم يشارك، عليه الاستماع والاستمتاع بكل ما يدور من حديث، لم ينتظر إلى نهاية الأحاديث الغائبة، عليه أن يجري أحاديثه مع ذاته، ليس مع الآخرين، لم يصعد إلى ترام بحري، صعد في ترام الرمل، تذهب به كيفما شاءت، لن يبرح مكانه حتى تنهره بالنزول وهو ينتظر, ما عليه إلا الصبر في جلسته الغائبة، التفت إلى مقاهي سيدي بشر الممتلئة، يجب البحث عن مقعد خال في مقهاه المغلق، لم ينظر إلى نافذة محبوبته، يعرف متى تظهر ومتى تختف، ما عليه إلا الصبر والانتظار، هي ما زالت متربعة في قلبه الخالي من كل حب، لم ينعم باحتساء شرابه المفضل من الشاي المدعم بالنعناع، لم يصبر على الدفع للنادل، تركه على الطاولة، عليه الحذر في متابعة مَن ينتظرها كل ليل، عليه الصبر في رحلة ترام الرمل، لن يقترب منها, عليه التمتع بجمالها، يتمنى أن يتحسس خصلات شعرها القصير, تاج على رأس لؤلؤة بيضاء زاهية، لم يسلم من هواجسه.. هل ستصبر دون رفيق حتى تكتمل كيسة نقوده؟

ما زالت في حاجة لكثير من النقود، خطوات الانتهاء من حلمه بعيدة المنال، شقة وجهاز وأشياء كثيرة، لا يقدر راتبه

المتواضع أن يفي بكل الطلبات، نعم هي من أسرة متواضعة، لكن جمالها منارة تُرشد كل مَن يريد الحب.

التفت إلى ترحيب صاحب المحل بها، لم يتأثر باختفائها بين البضائع، عليه الآن الصعود إلى مقهى البلياردو. جلس بجانب النافذة، يرى محل عملها بلوحة متوهجة بالأنوار(جولي مدام) يتساءل: أهي متوهجة بجمالها أم بأنوار اللوحة المعلقة؟!

لم يفكر يومًا أن يجلس بمقهى السلطان حسين، لا سبيل للمراقبة أو مشاهدتها بالتعامل مع الزبائن، هنا يرى كل شيء.. جسدها الأبيض، فستانها الملفوف يحتويها من كل جانب، الأرداف، الصدر المرمري، بسمتها الرائعة، هي زهرة تطغى على سحر المكان، لم يفكر بالاقتراب ومشاهدة معروضات المحل، لن يفلت من سحر بسمتها ومشاهدة ما تعرض من ملابس، لا يريد أن ترى حتى وجهه، دائمًا يتابعها دون أن تدرِ به أو تشعر باهتمامه بها، هو مطمئن لجلسة كل يوم بمقهى البلياردو.

انتبه إلى النادل يقترب كعادته بابتسامته العريضة، يضع مشروبه المفضل من البن السادة؛ يريد أن يحافظ على يقظته في المراقبة والتمتع بتعاملاتها مع الزبائن، كم يهتز عندما تنحني لالتقاط المعروضات وترتيبها، نحى عنه كل شيء من

متعة دور السينما أو المسرح، هي الآن مسرحه وشاشته ومتعته الليلية.

التفت إلى ساعة الحائط، تقترب من منتصف الليل، عليه الإسراع بدفع حساب المقهى والاستعداد إلى متابعة خطواتها، والعودة مرة أخرى إلى سيدي بشر. لم يمل من فوات الشهور على هذا الحال، جمالها ينسيه الدنيا بما فيها، كيسة نقوده لا تمل من خروج ما يكفي من مصروفات الذهاب والعودة مرة أخرى لمستقره وحجرته المغلقة. انتبه إلى صاحب المحل يطمئن على الأقفال، لم يتركها كما هو الحال دائمًا، أشار إلى سيارة الأجرة، صعدت معه وهي تلتفت إليه، الدنيا كلها تشاطره فرحة ابتسامتها، لا يدرِ هل يبتسم هو الآخر أم يشعرها بمدى حزنه لمفاجأة المغادرة؟! عليه الصبر إلى يوم آخر ليرى عودتها مع خطواته لترام الرمل أم مع صاحب المحل بسيارة الأجرة. أشعل غليونه مع خطوات العودة الحائرة، تحسس فراشه، ما زال ساخنًا لم يبرد بعد.

***

مرت أكثر من ساعة وهو ينتظرها، لا يرى أي بوادر أمل في أن تعبر بوابة منزلها، قدحان من البن السادة تكفي وتصده عن مشروب آخر. لم يلتفت إلى النادل ونظراته الثاقبة إليه وفي

جلسته، خمسة أيام، خمسة أيام ألا تكفي بحذفها من قائمة الحب الغائب عنه في كل وقت وفي كل حين، محاولات باءت بالفشل، مرات في مقهى البلياردو أمام محل عملها, ومرات هنا بمقهى سيدي بشر ينتظرها. لا تظهر هنا أو هناك! أشاح بوجهه عن مرآته الخادعة المهشمة، لن ينظر إلى ضحكاتها وسخريتها منه، يتمنى أن تختف عنه.

انتبه.. المقهى يعد للإغلاق! ما عليه إلا الرحيل، لكن إلى أين؟ لم يرغب في الترام، عليه إنهاك بدنه بخطواته حتى يهجم النعاس على رأسه الفارغة، ما عليه إلا الصبر على كل شيء، راوده سؤال أصحابه الغائبين:

ـ متى تفكر بالزواج؟ سنين عمرك تفوت وتمر وأنت لا تدري. نحن نحزن على أنفسنا منك، ستصبح وحيدًا لن ترانا ولن نصبر على فشلك.

كم أفضى إليهم بضيق قِصر اليد، وأن لا حيلة له إلا انتظار الفرج، هم لا يصبرون مثله، يتأففون من فوات سنين عمره، حاول أن يعرف لماذا كل هذا الحزن وذاك القلق؟ هو لم يتأخر عن عمل المستحيل من أناقة وغليون ولحية في أسفل ذقنه الصغيرة المدببة، أصابع الإعجاب تشير إليه، يخلطون بينه وبين الفنان سمير الإسكندراني، فارق واحد يفصله عنه،

لا يجد السعادة ولا الشهرة ولا حتى الزوجة، عليه من الآن أن يفكر في مسار جديد لحياته يُنقذه من أحواله التي لا تعجب حتى أصحابه الغائبين.

التفت إلى ساعته، اقترب ميعاد نهاية عمل الترام، وها هي الترام قادمة وأقدامه أرهقها السير المختفي، لم يسعد بخلوها من الركاب، يتمنى ازدحامها، ويا حبذا بالجميلات، كم انتفض من مقعده لتجلس إحدى الجميلات، لا جميلات ولا ركاب ولا قاطع تذاكر! أشعل غليونه عسى أن يزيح عنه بعض همومه، لم يعجب بوصول الترام إلى محطة الرمل بهذه السرعة، لم يفكر في أي شيء غير أن يخترق الطرقات ويصل إلى مبتغاه حيث مرقده، النعاس يأمره بالإسراع إلى فراشه، لم يبقى غير شارع النبي دانيال، عليه الصبر والخلاص من نهايته، دقائق الحظ تتخلى عنه، الآن هو أمام أحد أصدقاؤه القدامى، لا مفر من السلام واللقاء، سعد باللقاء وحديث صاحبه الممتع، يخرجه بمهارة من همومه ومتاعبه بكلمات تفتح له أبواب السعادة والفرج، يحثه على العمل مثله بالفن:

ـ مظهرك وقوامك وأناقتك هم مفتاح دخولك بهذا العالم المثير.

لقاء يُنازل كل مُتاعبه، يهزمها من أول جولة ولا إعادة، شعر بالفرح يغمره، يُنعش أجفانه، يطرد النوم الذي كان في سبيل السيطرة عليه والخضوع له والعودة إلى الفراش. أشار صاحبه إلى أهل الفن ينتظرون إنهاء اللقاء، هو الآخر في فراشه يخرج لسانه لمرآته المهشمة.

***

حان الوقت بالانصراف، الساعة تقترب من منتصف الليل، كان يتمنى بروفات المسرحية تطول أكثر من ذلك، العائق الوحيد زميلاته الممثلات، فعليهن الإسراع في العودة إلى منازلهن، تناقض الأشياء أمامه يُثير تساؤلاته، هن يتصرفن مع فريق الزملاء بكثير من الحرية في كل شيء، التصرفات كلها مُباحة للجميع! لا فرق بين رجل وامرأة! تصرفات تخرج عن نطاق كل أخلاق، كل شيء مباح! هو الوحيد الذي تفر عنه زميلاته، لا فائدة منه، كيسة نقوده تحجب عن صرف أي شيء، هذا أسلوبه من أول خطوات اشتراكه في الفرقة المسرحية.

التفت إلى آخر مَن تخرج، هي تعجبه، يشعر بدقات قلبه إليها، عمد إلى الوقوف في طريق خطواتها عسى أن ينعم بالمسير معها بضع دقائق، لم تلتفت ولو بإلقاء تحية الافتراق!

هي تذكره بجميلته المختفية، ولا يعرف عنها أي شيء بعد غيابها عن محل عملها بمحطة الرمل، ما عليه إلا الصبر على معرفة أحوال الغياب، وها هو يصبر على فاتنة المسرح.

انتبه إلى مسرح "إسماعيل يس" يطفأ الأنوار ويغلق أبوابه، شهران من البروفات والحفظ ومدارسة خطواته على المسرح، يتمنى أن تمر الأيام الباقية والإعلان عن بداية العرض، هل سيقف على خشبة المسرح ويشاهد الناس ويُصفَق له مثل النجوم الكبار, عليه الصبر في كل شيء، الحب والفن في آن، لن يركب مواصلات، عليه العودة معتمدًا على أقدامه، هي توفر له الكثير من النقود وإن كانت قليلة في نظر الآخرين.

عرج إلى حارته ومحلاتها المغلقة، سكون الشارع يسعده بعدم وجود من يشاهده أثناء عودته كل ليلة في تلك الساعة، يتحاشى أسئلة الجيران وسعيهم وراء معرفة أهله أو أصدقاؤه. غرفته فوق سطح البيت لا تعلوه إلا السماء، تصد عنه أي تطفل من الجيران، الدرجات الخشبية المتهالكة إلى غرفته يخشاها جميع السكان، لا أحد يقدر أن يقترب منه أو يصعد إليه، خلع حذاؤه الغائب عنه دائمًا، ارتمى على فراشه المتواضع، أشعل غليونه ليرتشف دخانه قبل النوم تحت تأثير صاحبه الوفي، المذياع الصغير، عسى أن يرحل إلى النوم،

تحاشى الالتفات إلى مرآته المهشمة، يكفي ما أصابها من خيبة أمل بعد أن عادت إليه بسمته الغائبة، هوايته الجديدة بالمسرح، هي خسرت كل شيء من تشوه جسدها والسخرية منه.

انتبه إلى أخبار المذياع والإعلان عن انهيار بعض المنازل بمحيط حارته الهارب منها إلى غرفة فوق السطوح، لم يتردد في الخروج في هذه الساعة والاطمئنان على عائلته وسكنها الذي عفا عليه الزمن الذاهب إلى الهدم أو الانهيار كما جاء في أخبار المذياع.

***

أقدامه ترتعش، يشعر بكثير من الخوف، اليوم يُحدد مصيره في الفن، نظر من بين الستائر، المسرح ممتلئ على آخره، مقاعد أخرى أحضرت لتلبية العدد الزائد، عاد إلى غرفته تحت المسرح، كم استقبلت في الماضي فنانين أمثاله يستعدوا للصعود على المسرح ومراجعة أدوارهم، لم يفكر في مراجعة دوره على المسرح، تاهت أفكاره في أركان الغرفة، رهبة المقعد والغرفة وأنفاس مَن شغلها من النجوم، يشعر بها تلتف حوله، يتبعها طواعية، ضحكات "حسن فايق" وقفشات "إسماعيل يس" وخطوات "ثريا حلمي" لا سبيل من الفكاك منها. جلس القرفصاء لم يجرؤ بالجلوس على المقعد أمام

هؤلاء النجوم, التفت إليهم، تمنى أن يشاهدوا دوره وإبداعه على خشبة المسرح، نحى أجره وملأ حافظة نقوده أمام هؤلاء، لم تلتفت إليه "ثريا"، التفت إليه "فايق"، ضحكاته تطرب أذنيه، "يس" اقترب منه وربت على كتفه، لم ينبس بأي كلمة.

انتبه إلى دقات مدير المسرح تخبره بالاستعداد للصعود، حانت الساعة لمواجهة جمهور المشاهدين وأداء دوره. انتبه إلى المرآة المهشمة، لا تفارقه، هي معه أينما كان، اطمئن على تجاعيد وجهه وصبغة خصلات شعره باللون الأبيض، تأدية دور الرجل المُسن (البصباص) وزير النساء حامل الوردة الحمراء وعصا التأنق والتألق، التفت إلى زواره بالغرفة، عينه تفضحه بالتوسل إليهم لمشاهدته على خشبة المسرح، لم يغلق الباب، تركه ولهم حرية إتباعه أو التخلي عنه.

صعد درجات السلم، إشارة الدخول تأذن له، الآن هو في مواجهة مع جماهير الصالة، لم ينبس بكلمة واحدة أمام هؤلاء المترقبون لكلماته، ثوان هي سنين تمر، تربط لسانه تحبسه، انتبه "إنجي" وأصحابها والضحك خارج النص أخرجته من رهبة المشهد، رفع عصى العز والتأنق، هزاتها مع كلماته تلهب حماس صالة العرض، زاد من خطوات الهز والغمز وترقيص الحواجب.. زاد حماس المشاهدين، "إنجي"

وأصحابها زادوا من حركات (الدلع) واللعب مع كلماته التي لم تخرج عن النص، التفت إلى مَن توسل إليهم لمشاهدة إبداعه، هم خلف الستائر "ثريا" و"فايق" و"يس"، يُصفقون له، تمادى في حركات الرجل العجوز (البصباص) زير النساء، لم تقدر "إنجي" وأصحابها من الفرار من حركاته، لا سبيل إلا التجاوب معه في حركات التحرش، لم ينتبه لهياج جمهور المشاهدين، صفعات الكلمات تصعد إليه على خشبة المسرح، كان يود الرد بكل ثقة وقوة، هو ليس بالعجوز الناقص ولا إلى ضحكات المعجبين.

انتبه إلى الملقن بصوته الهادئ:

ـ أنهى المشهد يا أستاذ بعبارتك الأخيرة.

لم تعجبه تلك النصائح هو يريد أن يبدع في حركات الشيخوخة مع هؤلاء النسوة، وخاصة "إنجي" بجمالها الذي ينتظره كل يوم بعد انتهاء البروفات، لا سبيل بالخلاص من جمالها وحلاوة ضحكاتها، عليه تكملة مشهد انتظاره كل يوم، سيقترب منها، سيلفها بعصا الباشا المزينة بالذهب، سيقذف بطربوشه الأحمر وسط جماهير المشاهدين، سيحطم الأنوار كلها، مطلبه صغير عفيف بريء طاهر من الدنس، قبلة واحدة يطبعها في أي مكان بجسدها الأبيض الغض! لن ترهبه كثرة

المشاهدين، حتى الأنوار له ظلام يهيئ له ما يريده ويصبو إليه، قبلة واحدة يمتص رحيقها، ينعم بها قلبه، تُشبع عينيه، يروي بها فؤاده، يغنيه عن عذاب الانتظار, "إنجي" معشوقتي حبيبتي روح قلبي أحلى الأماني. ظلام الدنيا يحتويه، نجوم السماء لا يرى غيرها، بريق الصواعق يعصف برأسه، مشهد يدها القوية لم يبرح من بين عينيه، لم يفكر في أي شيء غير أن يسرع بالخروج من خشبة المسرح، يزفه تصفيق "يس" و"فايق" و"ثريا".

***

النساء النساء، جميلات الإسكندرية، مبدعة الحلاوة والدلع الأبيض والأحمر والمتوسط، كلهن غانيات الجمال وصيد أعتا الرجال، التفت إلى ميدان الساعة بكرموز، الملتقى اللين الغض، مشعل الحب وإن كان في الحرام! صهيل الباعة لا ينقطع عن النداء والإغواء لكل ما يُعرض من بضائع، يصمت النداء أمام نداء صراخ النساء وهن في وداع الراحل من الحياة، جدار ضعيف شؤم متهالك من مشاهد الألم وفراق الأحبة، توقف، غض بصره عن جميلات السوق، رفع السبابة في تأدب وتلا الشهادة، خشوع يبرع في أداؤه كما برع على

خشبة المسرح، تساؤلات الحيرة تجبره: لماذا الموتى ومدافن كرموز بجانب سوق الساعة لماذا؟!

نعم، هنا المفروشات والستائر وما تخفي به النساء ما يتلصص عليه الرجال، محلات تشع منها كل ما يحبه الذكر والأنثى. بحث بين المحلات، ألا يوجد محل لأكفان الموتى المرافقين وجيران سوق كرموز, وجد غايته الكشك الخشبي المتهالك، لونه الأخضر القاتم بعبارته (كل من عليها فان) أسرع مبتعدًا عن نظرات بائع الأكفان ينظر إليه، ابتسامته ترعبه تهز أطرافه هو وهادم اللذات لا يفرق بينهما شيئًا.

اقترب من بغيته وهدفه، بوابة آثار "كوم الشقافة"، لم يراها منذ طفولته ورحلته المدرسية، الآن يتمنى معاودة ذكرياته، كفى ما عانى من حادثة المسرح و"إنجي" الضائعة كما ضاعت حبيبة محلات محطة الرمل، حظ مائل بمحاولات تفشل من أول خطوة في مراسم الحب، دقات قلبه هي الإذن بفرار الحب وضياعه، لا يستطيع كتم دقاته، ليس بيده وسيلة للكتم والتوقف عن اهتزازه، لم يمانع من اعتراض الحارس على عدم دخول أي مأكولات ولا حقائب. لا يرافقه شيء بالداخل، ترافق الداخل آلة التصوير فقط. لم يلتفت إلى الآثار وعجائب تاريخ الإسكندرية، أعجبه السائحين والسائحات،

أخرج غليونه، أشعله، اطمئن إلى لحيته (سكسوكته)، صار في شموخ وتعالى في رفع رأسه إلى السماء، يتمنى أن تلتفت إليه سائحة وتعجب به، أليس هو شبيه للفنان سمير الإسكندراني، الفارق بضع سنتميترات تفضحه عن قامة الفنان، لم تجدي خطواته في لفت أنظار أحد، الترجمان فقط كان يتابعه عن قرب، لم يفرح كثيرًا، نهره للابتعاد عن وفد السائحين.

عاد أدراجه إلى البوابة وإلى مواجهة أسوار المدافن وأطياف النساء في سوق ساعة كرموز، لم يلتفت إلى نساء الطريق، التفت إلى من تنحني بالبحث بين أكوام الملابس الداخلية! لم تعجب بخليط ألوان الأحمر والأصفر والأزرق، قبضت على بغيتها الأسود القاتم، عليه الصبر في معرفة المزيد من خطوات القطعة الصغيرة، هي بالكاد لن تخفى إلا جزء من فخذها المنتفخ، فما حاله في وسط جسدها؟! أشاحت زيل فستانها، لم تبالِ بالمارة والسائرين، نعم هي بين أجساد نساء أمثالها لا يعبئون بنظرات الرجال ومراقبته الثاقبة لكل من تعرض بضاعتها من اللحم الأبيض، ها هي تعرضه مع كل مشتهيات الإثارة والتمزج، عليه الصبر ومتابعة تلك المرأة التي لا تستحِ من نشر جمال بياضها السمين، أخذ يرتل الدعوات من أجل عدم ركوبها أي وسيلة مواصلات، كفى ما

عانى من هذه المواصلات المشئومة واختفاء مَن ينتخبها للجنس والمداعبة، لم يشعر بخطواته، هو الآن في مستقر أردافها المنتفخة، لم يقصد الاحتكاك بها، حاول أن يبتعد عنها، انتبه إلى أصابعها تشير إليه بالاقتراب، يا له من حظ! احتكاك يأتِ بفتح لهيب النشوة، ابتسم، كم من احتكاك لأعواد الكبريت لتأت بأنوار متأججة، عدل من هندامه، مسح على لحيته (السكسوكية) عليها أن تهبط لا تهيش لم يحن الوقت، أشارت إليه بدخول حانوت البقالة، لم يعترض، عليه الانسجام مع ما تناولته من مشتريات، أشارت إليه بالدفع! لم يتأثر، ما زالت كيسة نقوده بها الكثير، هذه ميزة أول الشهر؛ البراح والفسحة الكاملة فيما يفعل. وها هو الآن يفعل ما يحلو له.

التفت إلى مقهى المشايخ، كم هو موقعها مناسب لهؤلاء المبصرين من سهولة العبور إلى مبولة الحضري والتنفس من مشروبات ومأكولات الفتة واللحم في شوادر العزاء والمآتم. صبر على حديثها مع الشيخ الجالس بنظارته السوداء القديمة المتهالكة، هو يكبرها بكثير من السنوات، لم يعرف أهو زوجها أم أبوها أو عمها، عليه أن يترك اللحظات القادمة تأتِ إليه، ما جدوى العجالة؟ هي في مرمى اشتهاؤه والشبع منها، عيناها تفضحها، شفتاها زاد احمرارها، هزات خطواتها تشعره بمدى

سعادتها بهذا اللقاء وإن كان من غير موعد، لم يهتم بالبيت المتهالك ودرجات سلمه المتسخة. انتبه إلى رفصاتها بساقها الأبيض للباب، لا مزلاج ولا يستجيب إلا إلى رفصتها القوية، يُفتح طواعية للساق الأبيض الغض، عليه الإسراع بالدخول قبل أن يرفص هو الآخر، ابتسامة شفتاها وجحوظ مقلتيها توحِ إليه بالكثير من الخطوات. التفت إلى الغرف المظلمة وأضوائها الخافتة، عليه أن يختار جلسته وإعداد ما يريد إكماله معها، لا توجد مقاعد هناك في الأركان، الوسادات الملونة هي أريكة الراحة والاستجمام والثرثرة. سعد بخبر الشيخ الجالس بالمقهى أنه أبوها، ليس لها إخوة، وحيدة، تعيش معه، تصبر بأن يأتِ ابن الحلال ليطلب يدها، لم تفزع من إزاحة فكرة الزواج عن رأسه، سعدت بسكنه المفرد ومدى بعاده عن أهله وأصحابه، هو يحب تلك الحياة صاغرًا لها مطيعًا لظروف كيسة نقوده التي لم تسعده يومًا في البحث عن زوجة، هو دائمًا يبحث عن حبيبة يلتقِ بها تشبعه وتروي ظمأه بدون المنغصات من أولاد أو حتى أجرة المأذون، يكره تلك الأشياء المكلفة المقيدة لمفاتيح قلبه الكاره للأسر والاكتفاء بحبيبة واحدة، يريد التنقل مع كل الفاتنات الجميلات السمينات والقصيرات والنحيفات، هو الآن في أحضان السمينة التي تمناها، لم يتأفف

من تناولها الطعام بهذه الشراهة، ثغرها إذا كان حاله بالاحمرار في الطعام فما حاله مع القبلات؟! عليه الانتظار والصبر ليرى القطعة السوداء وهى في خصرها، هل ستظهر أم تختفِ بين أمواج اللحم الأبيض المتراكم؟ لم يمانع من قطعة القماش المبللة بالماء والصابون، مسح بقايا الطعام من على أصابعه، أسرعت بالتقاط قطعة القماش، كان يتمنى أن تمسح شفتاه بثغرها، أشفق على ارتعاش يدها واحمرار وجهها إلى هذه الدرجة من الاحمرار, لم يصبر أكثر من ذلك، لمح لها كيف حال القطعة السوداء؟ لم ينزعج من انسحابها بهذه السرعة من أمامه والاختفاء بالغرفة الأخرى، عليه التأهب لمشهد قطعتها السوداء وإعداد كلماته من الإعجاب بالأبيض السمين الملتحف بورقة التوت السوداء. لم يعجبه هذا التأخير، أكثر من نصف ساعة ولم تخرج! هل تنتظره بالداخل ليشاهد ما يشبع تمزجه بما يريد أم الأمر أكثر من ذلك؟ وهل يوجد فراش بالداخل والتمتع بمشاهد اللذة، الوقت يمر بسرعة والظلمة تزحف تنذر بقدوم الليل، ذهبت أفكاره إلى مقهى الشيوخ، هل أبوها لديه من سهرات المآتم والعزاء؟ هذا يكون من حظه في تكملة ليلته الوردية والشبع بالجسد السمين وما يختبئ به من القطعة السوداء، عليه التحرك نحو غنيمته من

الصيد الجميل، اقترب بهدوء من باب غرفة اللحم الأبيض، لم يقدر على النظر أكثر من تلك الثوان، جميلته وصيده الثمين في خشوع الصلاة لا يرى إلا وجهها المضيء، شل فكره! ماذا يفعل؟ أينسحب أم ينتظر حتى تنهى صلاتها؟! عجز عن اتخاذ القرار, دقائق الدنيا ساعات تمر وببطء ورتابة، عليه الاتجاه إلى الخروج من هذا المشهد المخزي له. هي أعطته الإجابة الشافية على ما يصبو إليه ويحبه ويعشقه وكان يتمناه، يجب الانسحاب وبسرعة حتى قبل أن تخرج من صلاتها، لم يستطع التقدم، يد قوية تقبض على رقبته، استدار إليها، ما أجمل جسدها الأبيض وما أمتع قطعتها السوداء لم تختف بين أمواج اللحم الأبيض، واضحة وضوح الشمس، سفينة تبحر بين الأمواج ولا تغرق ولا تختف، هبط إلى الوسائد الملونة، أعجب بلونها المتغير مع دقات الاشتهاء على سطح سفينته السوداء.

***

محطة خالية من كل شيء، لا رواد ولا بائعين ولا صوت يأتِ من بعيد، يلفها صفير الرياح وظلام الليل، لم يتمنى أن يرحل إلى هذه الأمكنة التي تفقده كل ما يحبه ويهواه، هناك كان يحمل كل مفاتيح أيامه ولياليه، هنا لا يجد حتى هره أو

كلب يسير بجانبه أو يسمع نباحه، ما عليه إلا انتظار الدليل كما أُبلغ بالهاتف، اهتز للقادم من بعيد، لم يعرف أهو مَن ينتظره أم عابر إلى محطة القطار؟ فشل في معرفة القادم، عليه الصبر وإلى أين يتجه؟ نحوه أم إلى مَن؟ لا يوجد غيره على رصيف القطار, يا له من حظ، إنها امرأة، تمنى أن تأتِ إليه، أهي بيت القصيد له أم لغيره؟ حاول بكل ما يستطيع من تسوية ملابسه وإصلاح خصلات شعره المدعمة بالأتربة من طريق القطار, هي تقترب منه، تصحبها ابتسامة لا يستطع فك أسرارها، أهي ابتسامة ترحيب أم ابتسامة إعجاب بسماته وقامته ورشاقة جسده؟ لم يعجب بتلك الملابس السوداء، أعجب بما يخفي وراءها من جمال الجسد الممتع لنظرات الرجال أمثاله، هو قادر على معرفة ما يخفى وما يستر تحتها، حاول أن يتماسك أمام هذا الوجه صاحب العين الواحدة، لم يستطع فهم نصف حديثها غير أنها زميلة في العمل جاءت لاستقباله، لم يتقدم أحد من زملاء العمل من استقباله، كان عليها هي القيام والترحيب به، تنفس الصعداء أخيرًا، وصل إلى مقر استراحة العاملين، التفت حوله، لم يرى أحد ينتظره، غرف بأسرة خالية، لا يظهر بها أي مشاهد الاستعمال من فركشة الأمتعة. انتبه إلى من استقبلته بمحطة القطار, أشارت إلى فراشه، لم يكمل كلمات

الشكر، تركته لتختفِ هي الأخرى، لم تؤثر فيه مظاهر استقباله ومكان عمله الجديد، هذا قدره في هذا النقل من شواطئ الإسكندرية إلى أقاصي الصعيد، عسى أن تفرج أموره المعقدة دائمًا، لا يرى بالإسكندرية أي بصيص من نور الأمل، هنا يبدأ صفحاته الجديدة من العمل والأصدقاء، عسى أن تأت إليه بخير من رفع راتبه وما يجنى من العمل الإضافي من انتعاش حافظة نقوده. التفت إلى التلفاز القديم، عليه الآن إفراغ حقيبته بما تحمل، لم ينسى أي شيء، أحضر جميع ما يخصه، لم يترك بغرفته غير الذكريات بما تحمل من خيبة الأمل في الحب والصحبة والمال، هنا ينتظر استلام عمله الجديد صباحا، ما عليه إلا الاسترخاء والنوم حتى يأتي النهار.

***

لم ترضى بتلك النهاية ولا هذا الغياب، أكثر من أسبوعان هي على هذا الحال من البحث عنه، بحثت عنه في الشوارع وبين الحارات، تمكث بالساعات بسوق ساعة كرموز عسى أن تجده بين النساء وبين بالات ملابس النساء، لا فائدة، "مُحب" لا يظهر ولم تجده، ساقاها خذلتها في تكملة البحث، تدور وتدور بين الشوارع والحارات وترجع إلى بيته تراقبه من بعيد عسى أن يأتِ، تفشل، ترتمِ بين وسائد حجرتها الملونة، ينقصها

الحبيب الذي طال غيابه، قناعتها بـ"مُحب" وعدم الزواج لم تمنعها من البحث عنه واللقاء به ومداومة الحب الذي تحن إليه وتشتاق إلى التمتع به، مازالت تحتفظ بالقطعة السوداء وإعجابه بها في وسطها وبين ساقيها، سفينته السوداء متى يأتِ ليبحر بها ويغوص في أعماق بحرها الأبيض السمين الحاني لقبطان سفينتها السوداء، الآن بعد مشقة البحث والتنقيب عن عمله وجدت غايتها، مكان عمله والسؤال عن غيابه كل هذه الأيام والليالي التي تتمناها، خابت وخارت وهوت ودارت بها أراضِ الدنيا كلها، نقل إلى بلاد الصعيد، لم يبخل زملاؤه في معرفة المزيد من مكان عمله الجديد، لم تلتفت إلى غمزات زميلاته والسخرية منها وسؤالها عنه، لا تبالِ فهي تسعى لمعرفة مكان حبيبها محب، ما عليها إلا إعداد الحوار بينها وبين أباها الشيخ الأعمى وإقناعه بالسفر لزيارة خالتها بطنطا، مهمة صعبة معه، غياب بصره منحه المنحة الربانية في معرفة ماذا يدور بين الكلمات وكشف الكذب في رنين الأصوات، مهمة شاقة تتمنى نجاحها والفرار إلى حبيبها في أقاصِ الصعيد، ما عليها إلا الصبر وانتظار شيخها الكبير، قد اقترب ميعاد عودته، لم تبخل عليه في تلك الليلة، أحضرت له ما يحبه ويشتهيه، علبة التونة والخبز الساخن وقطع البصل في

مياه الخل، زهد وأنف من تذوق اللحوم والفتة والأرز وعجينة لقمة القاضي بالمآتم والعزاء، لم تنسى شراب الخروب البارد لتكمل له سعادته بتلك الوجبة؛ لتنال ما تريد من السماح بالسفر والالتقاء بحبيبها محب والغائب عنها، ترتعش وتسخن أوصالها كلما تذكرت حبيبها, تنتقل بين الحجرات تفترش الوسائد عسى عودة الغائب ليمنحها قرار السفر, هل تبحث عنه في المقاهي أو داخل سرادق العزاء بين الشوارع والحارات؟ فكرة مجنونة مشتغلة بنار الاشتياق لحبيبها والالتقاء به.

انتبهت إلى الضوضاء على درجات السلم، لم تصمد بالوقوف بركت على الأرض، أباها الشيخ جثمان يحمله زملاؤه ورجال الحارة، لم تمانع من مبيت زملاؤه لتجهيزه للدفن في الصباح الباكر، دلفت إلى حجرتها، الآن عليها إعداد حقيبة سفرها إلى حبيبها محب.

***

لم يعرف كيف ذهب إلى تلك الجبال على مشارف مدينة عمله الجديد، هل هو هروب من الواقع المر الذي يتسلل إليه؟ عمل ليس بشاق، خدمة الجماهير من شهادات ميلاد ووفاة وغيرها من الأمور التي لا يستغنى عنها الناس. نُبذ من بين زملاؤه، هو الشريف الذي لا يقبل الرشوة أو المحسوبية أو

المجاملة، يرضخ دائمًا لتنفيذ أعماله بما يمليه عليه ضميره، ابتعد الزملاء عنه، أصبح خطرًا على مساعيهم في جمع ما يستطيعون من أموال الرشاوى في تزييف كل من يدفع، هناك بالإسكندرية لم تكن الأعمال تجري بهذه الوحشية وهذا الفحش في التمادِ في أمور الموتى وتزييف البيانات، الطابع الانجليزي والتعامل مع الجماهير يسير بالاحترام وضبط كل الأمور بما هو كونه صحيح، لا سبيل إلى التلاعب وعمل ما يخذي من التفريط في أمانة العمل وصدق الضمير وغلق كل أبواب اللعب بأقدار الناس.

يسير الآن في مناطق غريبة لم يشاهدها حتى في الصحافة أو التلفاز, مغارات يحتويها السواد، توحي بشيء من الخوف والابتعاد عنها، أصر على تكملة الهروب من واقع لا يتحمله، يريد أن يبتعد عن عمله الملوث بالرشوة والخداع، لن يتوقف عن التقدم إلى الأمام والدخول لتلك الكهوف والمغارات، ذهل من مشهد اتساع المغارة في بطن الجبل، لا فرق بينها وبين ردهات القصور. انتبه إلى الجسد الممدد على الأرض، حمد الله أنه لم يتعثر به، يغط في نوم عميق، لم يشعر به، كان عليه الحذر في الخروج، لا يريد أن يواجه ذلك الوجه وتلك اللحية، لا فرق بينه وبين أهل الكهف، غير أنه وحيد ليس معه أحد ولا

كلب يحرسه، لم يكمل خطواته، نباح الكلب يأتيه من الخارج، لا يستطيع الخروج أو العودة إلى الخلف، التفت إلى صوت ينقذه من النباح أو من الهجوم عليه، الجسد النائم أمامه بقامته وجسده المفتول العضلات ولحيته الطويلة، هدأ مع بسمته الساحرة، لم يتمنى أكثر من ذلك، عرف حكايته وسره في السكن بعيد عن شرور الناس وملاحقة الأمن له، يحمل من الفكر المراقب لكل صغيرة وكبيرة في الحياة، لم يبخل عليه بسبب هيامه بين العشب وتلك الكهوف، لم يعجبه العزلة مثله هو يريد الانطلاق مع الحياة ومواجهة وإن كانت خالية من التحدي يكفيه مرآته المهشمة، انتبه إلى الوجه الهارب من الحياة، لم تعجبه ملامح غضبه، هو يريد أن ينهى اللقاء بل يشعر بالطرد دون أن يتفوه بأي الكلمات انسحب في هدوء لم يعطى له فرصة في تكمله غضبه وثورته عليه، حمد الله بالخروج سالما من ذلك المأزق الذي وضع نفسه فيه وبإرادته، ما عليه الآن إلا العودة إلى مكان سكنه والدفء بفراشه والتفكير لما هذا الرجل وصل به الحال إلى هذه العزلة والقناعة بكسرة الخبز وجرو الماء وفرشة من الخيش، هو إنسان يتمنى إلى العودة إلى الخلف إلى زمن فائت مناقض لكل ما شاهد في أيام حياته، ملابسه هيأته فراشه سكنه ولكن مازال

عقله مشتت متفرق بين حاضر وماض يبعد عنه بعد السماء عن الأرض، انتبه إلى من تجلس على بوابة السكن زميلته ومن برفقتها، لم يشعر بالاطمئنان بعد انسحاب الزميلة ذات العين الواحدة، لم تمهله فرصة شرح موقف تلك الزائرة وإحساسه بغيرة الزميلة الواضح بالانسحاب بهذه السرعة ولو حتى بكلمة وداع، هو الآن في حيره كيف يتصرف هو لا يجد كلمات لاستقبال حبيبته السمينة بنت الشيخ الأعمى، لم يشعرها بحالة الهلع وخوفه في كيف يتصرف معها، نعم عنبر زملاؤه الموظفين خال لا يوجد به احد غيره، مرتشون يعرفون كيف يقضون حياتهم بين البذخ والتنقل في فنادق البلدة، هو الوحيد القانع براتبه المتواضع الطاهر من التلوث بالرشى وإتاوات انجاز الأعمال، الآن عليه شيء واحد يجب أن يفعله قبل أن يغلق باب العنبر، الذهاب إلى الزميلة ذات العين الواحدة وإخبارها بالزائرة القادمة، عليه النجاح بأنها زوجته السابقة القادمة عسى أن يرجع إليها قبل انقضاء عدتها، هي فرصتها الأخيرة في اللقاء به والعودة إليه

***

الظلام يحتوى المكان، الأنوار الخافتة هي كما هي برودة الهواء تخترق عظامه كما اخترقتها يوم وصوله إلى تلك

المحطة الكئيبة في كل شيء، ينتظر وصول قطار عودته إلى محافظه الإسكندرية، ليس كحال وصوله إلى الصعيد وبين عودته الحميدة المفعمة بالسعادة، زملاء عمله ووشاية صاحبه العين الواحدة هي غايتهم في إزاحته من طريق أعمالهم المشبوهة صدق ظنه بالزميلة كانت في سبيل الحصول عليه والزواج به، الفاتنة السمينة الحسناء جاءت لتخلصه من شباك الصيد، مازال في الوقت متسع للجلوس مع الفاتنة الحسناء السمينة ومعرفة ما هي الخطوة القادمة بعد وصولهم إلى الإسكندرية، التفت إليها تجلس بجانب الحائط، تنظر إليه، لا تريد أن يغيب عنها ولو للحظة واحدة، هل يخبرها بخبر الفراق عند الوصول، تذهب إلى سكنها وهو إلى غرفته المتواضعة ذات الدرجات المتهالكة أم يذهب إلى عائلته ويصلح من المودة والقرب إليهم، لا مفر من الإفصاح إليها بنيته في أن يكون الحال كما كان في السابق يرحل إلى مسكنه وهي عليها الانتظار حتى يأتِ، هذا هو حال حبه لها، أسرع إلى حمل الحقائب، القطار قادم، جلست بجانبه، لم تفتح أي حديث معه، هي الآن تريد النوم، ساعات الرحلة مملة مع ضوء العربة الخافت، من الصعب أن يرى الإنسان ملامح من يجلس أمامه، عربة القطار خالية، هي وهو وعجوز يجلس في

أخر مقعد من العربة، صوت القطار يؤنس وحدتهم يحتويهم بصفارته المزعجة، اهو يشاركهم ويتطفل عليهم في صمت العربة الفارغة من الركاب أم يوقظ السائق من غفوة النوم التي تلاحقه مع ظلمة الليل وسكون كل شيء، مازالت فكرة الإفصاح عن فراق حبيبته السمينة تلح عليه، هي نائمة لا تشعر بما يحل بها عند عودتها إلى الإسكندرية، ولكن ما المانع من السكن معها وإن كان من غير عقدة الزواج، هي تأتى إليه بفراش المتعة دون قيد ولا شرط ولا ورقه ولا شهود، هناك شيء واحد ينغص عليه السكن معها، غياب ورحيل شيخها الأعمى يجبره بمد يد العون في المساعدة في تكاليف العيش وإن كانت قليلة، التفت إلى يدها تحمل الكثير من الحُلي الذهبية، هل يقدم على فحص معدنها من الذهب أم حلى الزينة الرخيصة الثمن، هي نائمة لن تشعر بما يريد معرفته، ضم كفها بين كفيه، لحظة حنان وحب ولمس يدها السمينة، لن تقطع عليه متعته بما يريد فعله من حنان، لم تدرى بما يريد هو من عدد الحُلي بيدها وبريق الخاتم في إصبعها، يا له من فص زمرد أحمر، أسدل طرحتها على كفيها وصدرها، عربة القطار خاوية عليه الحذر على كنزه ومجوهرات مستقبله السعيد، لا سبيل من الابتعاد عن أشياؤه الثمينة ومحبوبته

السمينة، لا نوم ولا حتى الإغفال عن حراستها حتى يصلوا بالسلامة إلى الإسكندرية، أشعل غليونه ليطوف مع دخانه إلى أعالي آماله وحلمه في امتلاك كل شيء كفى ما أضاع من فرص واحداثها الضائعة دائمًا، لن يفارق حبيبته سيظل معها يشبع من رحيق جسدها الملتهب السمين ويمتع كيسة نقوده من مصاغها وحليها الوافرة بالبريق، لم يمنع فكره من حساب وأثمان الحلي، هي تحمل الكثير من النقود، بريق الذهب جذبه بحنان بريقه وتوهجه إلى طريق آخر، هل هناك المزيد في سكنها، هل شيخها الأعمى ترك لها من المال ما يكفيها عند رحيله، تساؤلات كثيرة تدور في رأسه ولهفته بمعرفة المزيد من كل شيء، انتبه إلى غليونه يريد المزيد من التبغ واشعاله ليطوف مرة أخرى بين دخانه وذهب حبيبته

***

نجوم الليل تزهو في السماء تداعب الظلام الأسود، هل تريد المداعبة أم تريد هتكه بأنوارها، من تتحدى ومن تبارزه؟!، ليل اسود لا حيله له في سواده وظلمته، يطيع ويصبر على حاله وحكمته، يحزن بأحواله على سطح ماء البحر. أمواج تتحدى هي الأخرى ظلمته وسوادها، تهتك ناموسه الليلي بلونها الأبيض، إلى أين يذهب وأين السبيل

بالهروب من حبه لجميلة السمينة؟، الأيام تمضى وشهوة المتعة لسمنها وعسلها وذهبها في طريق النفاد، لا سبيل للخلاص وإنهاء كل شيء، ليت حاله مثل حال السماء والبحر, هم أحسن منه حظا، سيخرج النهار ويفرح البحر, وترحل الظلمة وتختفي النجوم وتمرح الأمواج بنور كل شيء، نهض من بين رمال الشاطئ، فجر يوم جديد بدأ يقترب، إلى أين يذهب إلى عمله أم يعود للحبيبة السمينة وقضاء بعض المتعة واللعب، ليدور مرة أخرى في رحى أيامه ولياليه التي يتمنى أن تنتهي قبل فوات كل شيء من خزائنها، لا سبيل إلا العودة إليها وانتظار أن يأتِ الحل من حيث لا يدرى ولا يعلم من أين يأتِ، عليه الانتظار مع الصبر والمتعة وان كان لا يشتهيها، أشعل الغليون عسى أن يصاحبه في خطوات العودة، العودة إلى الخلف مرة أخرى ومعاشرة حبيبته، انتبه إلى آذان الفجر,لم يتردد عليه تلبيه النداء ما المانع من الدخول، لن يكلفه شيء غير أن يتوضأ ويندس بين هؤلاء المصلين عشاق المحراب وسجادة الصلاة، لم ينسى لقاؤه بصاحب اللحية وجلبابه المهتك وكهفه المتواضع في أقاصِ الصعيد، هنا بين أعمدة المسجد الكثير يشبه، بل اختلط عليه الامران يقابله في صحن المسجد وبين المصلين، فزع من بين الصفوف، أسرع بالخروج بعدان التقط حذاؤه في

يده، من الممكن أن يخدع كل الناس ولكن لا يقدر أن يخدع عالم الغيب رب السماء، لم يجرم في حق العبادة، نسى ولم يتناسى انه كان في أحضان حبيبته السمينة يغوص بين أحشاءها وتلالها يمتص من جبالها وعليه أولًا أن يستحم ويتطهر

***

الدنيا كلها تسير سوق الساعة بكرموز مازال ممتلئ برواده من النساء وما يحملون من كل شيء المتاع والغلمان وكتل اللحم البارز من الأمام ومن الخلف، لم تشعر بيدها تتحسس صدرها هي الأخرى تحمل الكثير من تلك الكتل، لم تقدم على ملامسة أردافها، تخشى أعين المتلصصين أمثال حبيبها الغائب في ساعات النهار, أباها الراحل كم نهرها من التهام الكثير من الطعام، لم تستمع إلى نصائحه بل تعاند وتأكل وتلتهم أكثر فأكثر وها هو حالها، حبيبها يصعد ويهبط ولا خوف من وقوعه من عليها، هي حاضنة حنونة تفترش أرض الكون ليحيا عليها ويتمتع بطراوة جسدها، لم تحدد وجهتها تترك أقدامها لتذهب بها إلى أي الأمكنة، تفر بجسدها وعواطفها من العتاب المتكرر من أهل حارتها وجيرانها، ما السبيل في سد الأفواه وغلق كل الأبواب، حبيبها شرط عليها بعدم الاقتران

هو يحب الحياة بهذه الصورة وإن كانت شاذة تفتح السبيل للقيل والقال ولا سبيل في حل آخر، الآخر هو فقدان ذلك الحبيب وفراره، تحس وتشعر وتكذب أحاسيسها الحبيب يريد أن يغادر وهي تريد الإمساك به ولا سبيل في الاستغناء عن حبه والتلذذ به كل مساء وأحيانا في الصباح، هكذا هي قانعة حالمة حبيبه وإن كانت في طريق الحرام، لن تخضع لإرهاب أهل حارتها وجيرانها وأصحاب أباها الشيخ الراحل، ستفعل المستحيل من أجل عدم فرار الحبيب، التفتت إلى بوابة المدافن، نظرت إليها كأنها لم ترها إلا في تلك اللحظة ,سنين عمرها كلها أمام هذه الكلمات ولكن هنا الانتباه وهنا صحوة لا تعرف أهي صحوة الحل أم صحوة نهاية المطاف (كل شيء عليها فان) رددتها في سرها تريد أن تصيح في هؤلاء القوم، اتركوا لي حبيبي أنعم به، فكل شيء عليها فان، لم تشعر بحرارة الشمس ومتابعة تابوت يدخل إلى مثواه الأخير, التفتت إلى قبر أباها، لم تقدر على التماسك وصد البكاء، تربعت بجانبه تشكى له حالها وتزيد من النحيب عسى أن يغفر لها ويرحمها بالحل الرحيم مع حبيبها، لن تمل من الجلوس بجانبه حتى آخر النهار واختفاء شمس النهار, ضمت ساقيها، تهتز من متعة اللقاء، تشبعها تطوف بها، لم تشعر بهذا الجمال هو جديد عليها، اللذة تغير

طعمها هي أعظم بكثير من الأوقات الماضية، حبيبها فارس فراشها يتوهج بأنوار الدنيا كلها، لمساته تشعل كيانها بكل ما فيه من أهات وصرخات ولذة، تفتح نوافذها ترحب بكل ما فيها من متعه وحب وجمال، انتبهت إلى حارس الموتى يوقظها للخروج فقد أزف ميعاد الغلق

***

صقيع الليل ينخر عظامه، الاكتئاب يحتوى المكان ويكتمل بغياب زوار مقهى البلياردو، أشهر الأماكن بشارع صفية زغلول يهبط إلى مستوى الإفلاس في كل شيء، موائد العاب البلياردو هي وموائد مشرحة الموتى الرخامية يستويان في الصمت وسكون الأنفاس، لا مفر من استدعاء الماضي وإن كان خيال ظل، رحيل الإحساس وزوال الأحبة لم يمنعه من الصعود بالمقهى بل والجلوس في نفس المكان ومن الممكن أن يكون نفس المقعد، لم يمنعه اليأس من الالتفات إلى الحبيبة الغائبة، تتواجد أخرى تستقبل الزبائن، لم تفلح أضواء المحل في منحه إحساس ينعش قلبه المفلس من مشهد المتعة والشبع وان كان مفقود، هي غائبة مختفية، التفت إلى النادل، لم يعجبه هيأته المتواضعة أين الآخر؟ رحل هو الأخر! قهوة من البن الرخيص، لم يكمل ارتشافها قذف بالنقود على الطاولة اتجه

إلى الهبوط إلى شارع صفية زغلول لم يفلح من صد جحوظ عينيه إلى محل حبيبته الغائبة، البائعة الأخرى في حالة يرثى لها لا جمال ينتبه إليه الرجال، الآن حان وقت العودة إلى الحبيبة السمينة، بيت الراحة لكل ما يعانى من مشاق الإفلاس صديقه الوفي له منذ ولادته، لم يتردد في العروج إلى بيت العائلة كم من الوقت مر منذ خبر انهيار المنزل المجاور لهم، أزاح فكرة العودة إليهم مرة أخرى وعدم العودة إلى سكنه وغرفته ودرجاتها الخشبية، لم يتراجع يبتسم بل ويضحك حتى غرفته هو غائب عنها منذ متى؟ لا يتذكر! حتى الماكرة لم تعرف أحواله ومغامراته حبيسة الحائط الغائب والمختفي، السمينة أغدقت عليه لم تبخل بل تزيد بسخاء من سكن ومتعه، راجع بنطاله وقميصه وحذاؤه اللامع، تراجع عن فكرة تنحيه زيارة الأهل سيذهب إليهم، لن يعطى فرصة لأبواه أو أشقاؤه من النقد أو حتى كلمة عتاب لحاله وحياته التي يحب أن يعيشها كما يحلو له هي خاصة وسرية وليس من حق احد في التدخل أو منعه فيما يحب، زيارة لن تأتى بجديد، تعود عليها، دقائق والعودة من حيث جاء، أهله لا يعشقون السهر مثله، هم ليس على شاكلته، يرى الكثير من الاختلاف بينه وبينهم، أشقاؤه يسبحون في السمع والطاعة لوالديه هو المتمرد من زمن

فائت، كم من خصام وعراك وسب وقذف وطرد إلى الشارع، انتبه الوقت تأخر كثيرا، لم يكمل مسيرته عليه العودة من حيث أتى، الآن عليه الإسراع إلى عشيقته السمينة، يطمئن إلى يقظتها وسهرها حتى عودته، هي الكتلة الغضة الناعمة، فرشته الليلية، يتمدد عليها لا يخشى السقوط، , درجات السلم مظلمة كما هو الحال دائمًا، عليه أن يحبس أنفاسه وخطواته بقدر ما يستطيع، يريد أن يرى مشهد المفاجأة لها بوصوله السعيد، الباب غير مغلق كعادته دائمًا، لم يشعل زر الإنارة يريد تكملة المفاجأة، لم يدرى بأن هناك مفاجأة تنتظره، رجال الحارة وأصحاب أبيها الشيخ في انتظاره

***

شمس الظهيرة الحارقة، الهواء الساخن يحتويها من الداخل ومن الخارج، لا تقدر على خلع رداء العفة والطهارة، هو يزاح لمن أحبته وضحت بكل شيء من اجله، حبيبها يفرمن أول مواجهة مع أهل حارتها وأصحاب أبيها الشيخ، ترقب وصوله في تلك الليلة المشئومة، لم يبذل من الأسباب للاحتفاظ بها أو الدفاع عنها ورد شرفها الذي سلبه وامتعه بالليل والنهار, كيف تدور الدنيا بهذه الطريقة ويخذلها بل ويتخلى عنها، التفتت إلى سوق الجمعة الممتلئ بكل أصناف الخلق، هي تعرفه جيدًا لا

تنخدع من اللصوص وأصحاب البضائع القديمة المعطلة تعرف إلى أين تذهب، ها هو صاحب أبيها يفترش بضاعته على الأرصفة، اطمأنت إلى ما تحمل تحت طرحتها ممن يعز عليها بيعه ولكن لا حيلة لها غير ذلك نفدت نقودها وضاع مصاغها لحبيبها الذي رحل، لم تصمد أمام التخلِ على ما تحمل من نفائس ذكرياتها الفضية والنحاسية، وقطع الصيني وملاعق أباها في ليالي المآتم والعزاء، ستحصل على النقود ولكن أين الحبيب، لم تقدر من صد البكاء وارتعاش أقدامها ودقات قلبها المعذب بفقدان الحبيب، عرجت إلى جانب الطريق هناك من الأشجار وعليها أن تستريح ولو بقليل من الوقت، لم ينتبه إليها رجل بغيتها وإنهاء ما تحمل والعودة، الأشجار تهتز من حولها وفوقها، لم تقدر من التوقف، تسرع خطواتها مع قلبها المسرع في اللقاء، دارت بها الدنيا، تهتز الأرض من تحتها، حبيبها يبيع ساعته، لم تتوقف من صد هؤلاء اللصوص من خداعه، عليها الآن الإسراع إلى صاحب ابيها حان الوقت لنجدتها ونجدة حبيبها وبيع ساعته لهؤلاء المخادعين أصحاب الحيل والاحتيال، لم تبع هي الأخرى ما كانت تحمل من النفائس، لن يفر حبيبها من يدها القوية، انصاع إليها بابتسامته المحملة بدمع عينيه، عليها أن تتماسك في صد البكاء والخروج

به من سوق الجمعة، لم تعرف أين تتجه، تخاف أن تنظر إلى وجه وعيناه، لا تريد أن يفصح عن أي شيء لن تعطيه الفرصة في تبرير فعلته من الهروب والاختفاء، لم يحن الوقت للعتاب والحساب، الوقت وقت همسات اللقاء وحرارة الشوق هي فرصتها في لم الشمل مرة أخرى ستحاول بكل قوتها من الإمساك به وإغواؤه من الفرار واختفاؤه، مازالت تحمل القليل من النقود، هي محطة لها من محطات الاحتفاظ بمحب وتكملة أيامها الحلوة ولو على الملأ، لن تهتم بالدنيا كلها ستقذف بأهل حارتها وجيرانها في كل اتجاه، لا سبيل من فقدان الحبيب مرة أخرى، كفى ما عانت من العذاب وظمأ المتعة، ستكمل مسيرتها إلى بيتها وأمام أهل حارتها، هو مازال يحب وهى مازالت تعشق لن يفلت من يدها لن تطلق سراحه إلا في فراشها وحضنها الدافئ، دقائق السير هي ساعات بل ثقيلة ثقل الأيام والليالي من اختفاؤه، مسكنها مازال بعيد عليها الصبر لتصل إلى مبتغاها ومناها، لم ترضى أن يحمل معها ما كانت تعد لبيعه يؤجل إلى حين، يكفى لقاء الحبيب وعودته، الآن ظهرت معالم البيت، عليها إراحة يدها وفك اسر ه، الدنيا كلها تهتز مع اهتزاز جسدها ورعشة قلبها المحب، بركت على الأرض تنظر إليه وهو يفر ليختفي بين الحارات

***

النافذة مغلقة ومرآته مازالت تراقبه لليل ونهار, لا تمل من متابعة يده المرتعشة وقلمه القديم، يكاد أن يجف مداده، صفحات كلماته المتناثرة من حوله تشع بحرارة فراشه الساخن التفت إلى باب حجرته المغلق, لا سبيل إلى نسيان لحظاته الماضية، كيف التقى بحبيبته السمينة وكشف سوءة إفلاسه في سوق الجمعة، هي مثله تماما خوت كيسة نقودها تحمل الآن ما في قاع جعبتها من أشياء، هي ذكرياتها كم من الحكايات تكمن بداخلها، لم يحزن بفراقها قدر ما حزن على أحوالها، لم يتردد عليه الآن إصلاح ما فات والرجوع إليها ومعاودة حبه لها,التفت إلى مرآته مازالت تسخر منه، ضحكاتها تصم آذانه تكسر عظامه تتحدى مازالت هي المنتصرة عليه من الجولات لن تثنيه من إعادة المحاولة، قذف إليها بعصاه لم تصبها في مقتل، لم تتفرق لم تنهزم، سيؤلمها بنظرته هو الآخر الساخرة، هبط درجات السلم الخشبي المختفي، لم يهتم بأهل الحارة الغائبين عنها والمحلات المغلقة، لم يلتفت إلى أهل حارتها وأصحاب أبيها، سيهزم الجميع، سيعلن خطوات حبه على الجميع، لن يقدر احد من صده عن حبه لفرشته اللينة الطرية المتحركة في كل اتجاه، يحرك دفتها كما يريد، لن يهتم بالرياح

والأمواج ومطرها الساخن والبارد في آن، كم تسعده بأمطارها المتشنجة والمهتزة والفائرة، تحسس بنطله يريد أن يهدأ لم يحن الوقت بعد، الحارات المختفية يمر بها ولا يعي بالًا ولا يخشى شيئا، القرار سيهزم الجميع، سيقطع الألسنة، لم يهتم بنقود حافظته القليلة، سيركع الجميع إليه، لن يتركوه أو يخذلوه أو يتخلوا عنه، هم كم سيسعدوا بقراره وإصلاح ما كسر، الحبيبة السمينة حبه المستمر والأبدي، لن يحمل أي شيء حتى وإن كان طعام العشاء، اقترب من بيت الحبيبة، مازالت درجات السلم مظلمة، وكما تعود رفص الباب بقدمه لم يفتح أو يزحزح من مكانه، اعاد الركل لم يبرح الباب مكانه أو يفرج ولو قليل، أشعل عود ثقاب غليونه، تحسس الباب بيده المرتعشة مع حرارة عود الثقاب، لم يقدر من صد ارتعاش أقدامه واهتزاز قلبه وظلمة عينيه، الباب مغلق بمزلاج ليس كالسابق، يفتح لمن يركله ,التفت إلى مرآته مازالت تراقبه قهقهة ضحكاتها تصم آذانه، لم يدرى ماذا يفعل هل يحطم الملعونة أم يذهب للبحث عن حبيبته السمينة الضائعة؟ هبط درجات السلم في حذر لا يريد من احد يشاهده مطرودا خائبا فاقد لليلة حمراء كان يعد لها، عرج إلى الشارع الجانبي ماذا يفعل أيبحث عنها أم يعود من حيث أتى، لا لن يعود سيبحث عنها في الحواري وفى

الطرقات سيقلب الدنيا كلها لن يفقدها، هو جاء لإصلاح ما أفسده، هي الصابرة السمينة المحبة لنزواته وشهواته فما الحال إن عشقته في الحلال ستقفز به إلى أعالي السماء، لا لن يكل ولا يمل من البحث عنها، الشوارع خالية غائبة والجميع نيام، هو وحده الساهر الباحث عنها وإن طالت الأيام والشهور والسنين، لم يتأخر في مواجهة كمين الشرطة وإخراج تحقيق شخصيته، لم يجده لم يتذكر أين تركه أهو فقد أم في احد أماكن غرفته المغلقة، لم يتبرم من الصعود بالسيارة والجلوس بين أمثاله المشتبه في أحوالهم، جحظت عيناه امرأته السمينة الحبيبة تجلس أمامه لا يسترها غير ملاءة لا تكاد تستر إلا القليل من جسدها الضخم السمين

***

فراش ساخن لا يقدر من مغادرته أو الابتعاد عنه والاقتراب ولو لخطوات قليلة من مرآته الساخرة، تحسس عصاه مازالت قابعة بجانبه عاجزة مثله عن فعل أي شيء هي في حالتها الجيدة وعصاه بجانبه، لن يشغل باله بما كان من حال كسرها بعصاه، كانت واحدة تسخر، الآن يسخران منه عصاه ومرأته، وها هي حبيبته السمينة يكشف سرها ويعرى جسدها لكل من أراد التذوق، سفينته يبحر بها الكثير كيف لم

يلاحظ هذا الأمر ولو لمرة واحدة، هي دائمًا تشعره بأنه حبيبها الأوحد سائق دفتها وقبطانها، كان عليه إنقاذها من يد العدالة والشرطة وقد كان، التفت إلى مرآته مازالت تتلصص عليه تنصت باهتمام، يا لها من ماكرة ساخرة مستفزة، بلورة سحرية تكشف كل خطواته وأخيرا تتلذذ بما وصل الحال به مع حبيبته السمينة، لم يعرف كم مضى عليه من الوقت في الابتعاد عنها واللقاء بها، تحسس غليونه لم يجده بجانبه، لم يجده بين أوراقه المتناثرة على فراشه وحقيبته الصغيرة القديمة، التفت إليه في زاوية الحجرة، الآن عليه اصطياده بعصاته وصعوده إليه، ابتسم قد أفلح في الإمساك به وإشعاله والسخرية من مرآته، الآن يزهو يرفع جبهته إلى السماء، مرآته تنكمش وتلم ازيالها بخيبتها بنجاحه في لم شمل غليونه وإشعاله وإرسال أنفاسه إليها، لم يتردد في الالتفات إلى عصاه، نعم هي مطيعة ولكن نفدت وظيفتها من زمن فائت الآن لا يقدر ان يستغلها أو يستعملها الا في مثل تلك الحالات من سحب غليونه أو إرساله ليحطم عدوته اللدوده مرآته الساخرة, عصاة تخدعه في أوقات كثيرة بالانضمام إلى زميلتها المرآة، أراح يده من غليونه المشتعل وأنفاس دخانه، حان الوقت لفراق عصاته من غرفته المغلقة فالتذهب عسى أن تجد من يحنو إليها, تمنى أن تجد

طريقها إلى بائع شواء البطاطا، يا له من حظ! لم يقدر من الالقاء بها، حنين سنوات عمره تصده عن القذف أو الحرق، أخفى ابتسامته لا يريد أن تراها عدوته اللدودة مرآته العفنة النجسة المتآمرة، عليه الآن الرحيل وإطلاق عنان فرسته الجامحة، لا تصدها أسوار أو أبواب مغلقة أو غائبة، التفت إلى الشاطئ الخال من رواده، أمواجه لا تفرق بين احد، تقذف الجميع، مياه طاهرة تغسل من أراد ومن لم يرد، هو مريدها يعشقها في الشتاء يرجو الغسل من كل ما علق به من المعاصي، كان يتمنى مرافقتها له للغسل والتطهر والتوبة، حبيبته السمينة لا يعلم أين هي الآن، لم يرحل إليها منذ فعلتها السوداء والزرقاء والحمراء، اقترب من أسوار حلقة الأسماك، كم اشتاق أن يجول ويصول بها مثل أصحابه في أيام الصبا، كم يفتقد من خطوات كان يحب أن يفعلها هيهات وهيهات، طأطأ رأسه لا سبيل إلى ما يصبو إليه، لن يشعل غليونه ولن يستريح أو يهنأ، عليه البحث من جديد على وجه وحب ومفاتن جديدة تشبعه يلهو بها عن ما فاته من الجميلة البائعة وممثلته الفاتنة والسمينة المتأججة، هي الوحيدة عنهن في فتح أبواب الحب على مصراعيها، حتى هي يفرمن اللقاء بها، مضى الكثير من الوقت لم يفكر بالذهاب إلى الحارة أفكار مبعثرة

وتشتت في اتخاذ إلى أين يتجه، كان يترك العنان لأقدامه تذهب حيثما تريد، الآن مقيده مثل أفكاره العاجزة من التحرك، هي وجسده سواء اكتمال العجز والفشل حتى إلى كسر مرآته الساخرة والقذف بعصاته من نافذته المغلقة، لم يستطيع تجاهل الصوت القادم من الخلف، يا له من حظ زميل دراسته بلحيته المدببة يعترض طريقه تمنى أن تخسف به الأرض أو يختفي لكن لا محالة من التوقف والحديث عن الذكريات، يشعر بفرحة دقات قلبه بالافشاء لصاحبه عن حاله ومغامراته مع الجميلات حتى الحب الحرام افشى به إليه ,يختلس النظرات عسى مشاهدة وقع تلك الأحوال عليه، صاحبه لا يمل من الاستماع إليه وبسمته الدائمة، متعة الاعتراف وطول الطريق لم يشعر به مع هذا الصاحب والساحب له بين طرقات حارة اليهود وشارع النصر، هدأت أنفاسه حتى الخطوات بدأت هي الأخرى في الهدوء والسير المطمئن لما هو آت، شعور أرجعه إلى شيخ الكهف في عمله في صعيد مصر, لا يختلفان في التريث في إلقاء الكلمات والنظرات الثاقبة، هي تخترق كيانه كله، هناك لا يطمئن للشيخ، هنا يطمئن فهو في طريق سكن صاحبه، يتذكره من أيام دراسته، كم مر عليه في الصباح والعودة، تمنى أن ينهِ هذا اللقاء الآت من غير ميعاد، لا

يستطيع لا توجد فرصة للاذن بالفراق، صبر في الإنصات لصاحبه كما أنصت إليه، مواعظ كثيرة واسانيد تلقى على أم رأسه عن الأخلاق والدين ومسايرة الحياة، عليه الآن معاودة إكمال موهبة التمثيل والإذعان لما يقول، كم من المرات نظر إلى ساعته عسى أن يشعر صاحب المواعظ بمضى الوقت وعليه الرحيل، لن يفشل كما فشل مع مرآته وعصاته الحائرة بين القذف أو الاحتفاظ بها، عليه حتى بالموافقة على ميعاد قادم يلتقيان فيه ولا مانع أن يكون في رحاب المساجد، التفت إلى الشارع المغلق، لا سبيل إلى النظر إلى الخلف حيث وداع صاحبه، عليه الإسراع واختراق الحارات والشوارع لا وقت للضياع وفقدان كل شيء، التوجه إلى حبيبته السمينة واللقاء بها والتنزه بين مفاتنها وصعود التلال والجبل

***

الأرض تهتز هل هو زلزال، وجوه الناس مهزوزة مرتعشة في السير, كل ما حولها يهتز ويرتعش، البنايات العالية تكاد أن تسقط على الأرض، هي الأخرى تقاوم السقوط على الأرض، قدماها لا تحملاها ترتعش تنتفض مما أصابها في الساعات القليلة الماضية، كم حاولت الاحتفاظ بما في أحشاءها، ثمرة كانت تتمنى أن تحتضنها بين ضلوعها لكن لا

محالة أمنية مزينة بالفضيحة، تعرف من صاحب هذه الثمرة، حبيبها الغائب من أول لقاء، شهران كانوا فرصتها في البحث عن حل مع الحبيب والاعتراف بثمرة حبه التي في طريقها إلى النمو، هو يمتنع ويتأفف حتى بالنظر إليها ومشاهدة بطنها المنتفخة، كم سجدت بين قدميه تخبره، هذا منك أنت، أنا ادرى واصدق في القول هو منك وليس من الآخرين، لا يستجيب ويكذب اهو يهرب كما فر من لقاء المأذون وعقد القران، كانت شروطه الأولى في مزاولة الحب والتمتع بها كيفما يشاء، لم تهتم بفرصتها بإجابته والبحث عنها لإصلاح ما يمكن إصلاحه من زواج وأوراق رسمية، أين هي تلك الأوراق الآن تبحث عنها ولكن لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن، لا أوراق ولا حبيب يفر منها كما فر في الأيام الماضية، طريق الحرام ومهنة البغاء لم تفعلها طواعية أو لمجرد الحب، فعلتها لتجلب للحبيب بعض المال حتى لا يفر كما فر الآن، نعم هو إنسان محب ويحب ويغرق في الحب، لا ينظر إلا للمتعة، غباؤها هو الذي أوصلها لفعل الحرام في سبيل توفير ما يلزم من الأطعمة والمشروبات وإن كانت بسيطة الأثمان، لم تتوقف من البحث عن حل والخلاص بما في أحشاءها، لم تبطئ في السير في الشوارع المظلمة هي كما وصفتها لها جارتها في سبيل

الوصول إلى القابلة بين عشش وخرابات سوق الجمعة، خوف وحيد يعتريها بمقابلة صاحب أباها بائع السوق، تتمنى أن لا يكون هنا غير مكان عمله فقط واليوم الثلاثاء لا يوجد سوق ولا يوجد مكان سكنه، تتمنى هذا التفتت إلى الشارع السد، كما وصف لها، ظهر لها الكشك الخشبي مكان القابلة، عليها ضبط أنفاسها والسير بخطوات واثقة من الحل بالخلاص واستعادة جمالها، لم تنصت إلى جارة القابلة اهى تشوه سمعتها أم تفشى بحقيقة الأمر من القبض عليها بتهمة القتل العمد، راجعت كلمات الجارة، القتيلة كانت في الشهر الرابع من الحمل، لم تنجح بإخراج ما في أحشاء المرأة ضعيفة القلب، لم تعلق رجعت أدراجها إلى الطريق العام وتدبير خطوة أخرى من خطوات الحل، هي في شهرها الثالث مازالت الفرصة مواتية للإجهاض والخلاص والفرار من الفضيحة هي تختف من الحارة كثيرا ولا يراها احد، عليها الاختفاء ولو لمدة تطول، لا سبيل إلى القابلة لا تعرف غيرها، الآن عليها الإبحار إلى طريق آخر, تعرفه جيدًا، الأعراب غجر ترعة المحمودية، هناك خلاص لابد منه، ستغلق قلبها بمفاتيح الدنيا كلها، تمكث وتلد ويتهافتون الغجر على الوليد ذكر أم أنثى لا فرق، يعرفون كيف يستغلون الرضيع بكافة السبل والحيل والحكايات، تلد ثم

ترحل الأيام والشهور تمضى سريعا، هكذا الحياة، لا سبيل إلى التوقف والنظر إلى النتائج وإن كانت فقدان ما في أحشائها، وتعود رافعة الرأس شامخة منتصرة على مشاكلها وجيرانها حتى حبيبها، اقتربت من قرية الغجر عليها البحث عن صديقة طفولتها، لن تهتز من سنين الغياب عنها نعم كان اللقاء دائمًا في الأعياد وموالد أصحاب البركات مشاهير المقصورات بالمساجد، لم تقدر من التوقف عن الضحك أم صاحبتها، كم كانت عطوفة حنونة في طهورها وعدم الإذعان لامها بقطع رغبتها من جذرها تركت الكثير وها هي نتيجة فعلتها تشهق من أول لمس تفور مع أول احتكاك، كم أعجب حبيبها وكم اثنى على من قصت وكانت رحيمة بها في ترك أداة الاشتعال موقده، لم تهتز من نظرات من يفترشون الطرقات في سيرها، لن تفتح فمها بالسؤال، ستترك أقدامها تنهى هذا المسير، لن تكل أو تخر من السير والبحث عن صاحبتها أو الأم صاحبة الجز العطوف، لم تتوقف هي تدرى بما تفعل بل تشعر باقترابها من بغيتها ومنقذها من العار، لم تسعد باللقاء بصاحبتها، الأم رحلت منذ أعوام، أخبرتها بوجود زوج الأم فقط، نجاح المهمة بدأ في الزوال الزوج رغم عمره وانحناء ظهره، لن تفلت من يده، نعم تمكث ولكن هناك من التحرشات

والحب في انتظارها، لم تقدر صاحبتها من النظر إليها في الحديث، كانت لا تقدر على المواجهة في افشاء الأمر, زوج الأم يعاشرها كما كان يعاشر الأم، تاهت ودارت الأرض بها كبرت المشكلة ليست الخلاص من المولود، هناك الخلاص من ذئب النساء، عليها التريث ولو لقليل من الأيام والوصول إلى قرار, لم تكمل احتساء كوب الشاي عليها المغادرة والعودة إلى حارتها وجيرانها، انتبهت إلى الصاحبة تنكمش في زاوية الحجرة الذئب حضر، حاولت أن تتماسك في صد أي شبهة بما قصت عليها صاحبتها، سعدت الذئب لم يشعر بأي هاجس ينتابه من اللقاء مع ابنة امرأته، كلماتها الممتزجة بتأوهات الفم والجسد أعمته حتى من السؤال لماذا تلك الزيارة، التفتت إلى صاحبتها تخفى إعجابها بما قامت به مع هذا الذئب حتى أسرعت بالقاء أسباب الزيارة، انكمشت هي وصاحبتها، زوج الام يستلقى على ظهره يخرج ضحكاته مع الترحيب وما تحمل في أحشائها

***

لم يفلح في الهروب من ميعاد صاحبه، السكة الجديدة كم تشبه ساعة كرموز الاثنان سواء، هناك الأجساد وروائح الحب وإعداد العدة لتجهز العروس من الحرائر وكل ما يلزم من

مشاهد الترف والتنعم كلهن سواء في لفت العيون الثاقبة المتلهفة لكل ما يشعل نار الحب من الخارج أو الداخل وهو الأكثر اهتمام واحتواء، هنا سكة الجميلة إلى قلب الرجل، براد الشاي وأطباق الحلوى وأوانِ الطهي المزركشة، ازياء ساعة الأقمشة لا تقل قيمة عن السكة الجديدة وما تحوى من جذب بريق الرجل، المرأة هي المرأة تنحني وتلتقط ولا تهتم بما يتلصص عليه الرجال من مشاهد المتعة، القرفصاء والانحناء والركوع، مناسبك تعشقها المرأة وإن كانت من غير وضوء مثل حبيبته السمينة الغائبة، كانت حديث صاحبه معه لا يدرى لماذا وافق بهذه السهولة في البحث عنها والعقد عليها مع التخلص بما في أحشاءها، عجيب هذا الصاحب كم هو متدين حديثه لا يخلو من المواعظ والحكم، كيف يفتح له أبواب الإجهاض على مصراعيها، وتأكيده أن المرأة اعلم بمن تستقبل حبه وتنميه وتشير بإصبعها عليه, وعلى الرجل بالقبول ويفعل ما يريد إما الخلاص أو الاحتفاظ، أحواله متشابكة معقده لا يعرف كيف الخلاص منها، عرف كيف ينهى اللقاء مع الصاحب وقناعته بما أتى إليه من حلول، لم يسرع في خطواته يريد المزيد من مشاهد المتعة المجانية بالسكة الجديدة عسى أن يذهب عنه هذا اللقاء الثقيل في كل شيء، التفت إلى شارع

الهماميل كم من ذكريات امه بها، سوق الطيور من الإوز والبط والفراريج والأرانب، اقترب من مبنى القسم القديم المتهالك، هو وبيت الأشباح سواء، خرب تسكنه الكلاب والقطط، عرج إلى مقهى أمامه وعليه أن يستريح، أغمض عينيه، أمه العطوفة تحمل الإوزة وتدخل مبنى القسم تريد أن تشكى البائع كم غشها في سعر لا يناسب تلك الإوزة، يمسك في ذيلها طفلها الوديع، لا تخشى العسكر ولا المبنى ولا حتى البائع، هي هى ثقتها بخطواتها لا يصدها خوف من أحد، أعجب بإشارة الطفل وابتسامته له، حزن لرحيل أمه وهو عندما فتح عينيه، مشاهد الاكتئاب تتراكم أمامه ما عليه إلا الرحيل إلى مكان آخر يزيح عنه هموم يومه ومشاكله، لكن إلى أين؟ هل للبحث عن حبيبته السمينة كما أوصى صاحبه أم يذهب إلى لقاء والديه وتقبيل يد أمه، فكم يشتاق إلى ذيل فستانها ليتعلق به ويرد التحية إليه

***

العرق يتصبب في جسدها، شمس النهار في منتصف السماء، جسدها يتمرد عليها بخلع كل ما ترتدي من لباس وأغطية، هكذا حال نساء الأعراب، فرق شاسع بينها وبين صاحبتها السمينة، ترتدي ما تشاء في الطريق أما بين

الحجرات لا ترتدي إلا ما يغري الرجل بالحب وأبوابه الملتهبة لا تستحِ من ذئب النساء هو دائمًا قابع يتلصص عليها عسى أن يجد فرصة الانقضاض والتهام ما يشبعه، لم تكن تدرى عند مغادرتها، أن صاحبتها السمينة ستكون في مرمى الذئب زوج أمها ولكن لا مفر من المهمة التي خرجت إليها البحث عن الحبيب الغائب، كم تشتاق للقاء، السمينة كشفت لها كل استار المتعة معه، لم تزل في حيرة أهي قادمة لإصلاح ما أفسد وجذبه لإنقاذ حبيبته السمينة أم لها هي، هي لا تريد غير المقابلة ومشاهدة الحبيب الهارب دائمًا لم تعطى القرار الأخير في اللقاء أهو الإصلاح أو الإصلاح والمتعة معا، حتى لبضع ساعات لن تضران تنال من الحب جانب، السمينة هي المسئولة عن تلك الخطوات من البحث عنه والحب معه، الم تفصح لها عن كل شيء، لم تترك خطوة واحدة الا وقد أفرغتها إليها، لم تترك شيء من كل شيء من التأوهات والمتعة، لم تجده في العمل خطوات ذهاب وإياب في الأماكن التي وصفتها لها، لكن لا حبيب ولا لقاء ولا متعة ولا أي شيء مما ترغب به، لم يبقى إلا المكان الأخير محل سكنه ولكن كيف تصعد إليه وهل ستجده، درجات السلم الخشبي المهتزة وبابه المغلق، لا سبيل إلا المغامرة والصعود واللقاء مع الحبيب الهارب منها الآن

وليس بصاحبتها السمينة فريسة الذئب زوج أمها، ارتعش جسدها رعشة أنعشت الحب لديها، زوج الأم تتمنى أن يكون حصل المراد وأمتع السمينة بما تشتهى من الحبيب الهارب، كما الحال معها الآن تتمنى اللقاء والمتعة والمغامرة، التفتت إلى الشارع الغائب، صعدت على درجات السلم الواهية، دلفت إلى الحجرة المغلقة، دارت الأرض بها، المرآة على الحائط تستقبلها تبتسم لها كم استمعت من السمينة عنها، تسمع ضحكاتها تتراقص على الحائط، لم تقدر على الجلوس على الفراش الساخن تريح جسدها المرهق والمتألم بغياب الحبيب الهارب من أول لقاء، لم تفزع بهبوط الليل مازالت تتذكر سكن حبيتها السمينة عليها الآن الرحيل والنوم حتى يأتِ الصباح هي عدة ساعات وخروج شمس النهار, التفتت إلى المرآة مازالت تراقبها وعليها أن تمنحها بعض الصفعات رفعت جلبابها أفصحت عما يختبئ من الحلاوة والجمال، لم تقدر من صد شهقتها وإنزال جلبابها الحبيب الهارب يدخل عليها دون استئذان وكيف يؤذن له وهى حجرته وفرشته التي تنتظر المزيد من الدفيء والاهتزاز

***

لم تصمد أكثر من ذلك يكفى يومان في عذاب وهروب ومقاومة للذئب القابع ليل ونهار بجوارها يريد نيل مراده من المتعة أين الصاحبة المختفية الواعدة بجلب الحبيب، فرصتها مواتيه الآن بالهروب والعودة من حيث جاءت، لن تنتظر الصاحبة تأخرها يعطى الكثير من الفسحة لزوج الأم القابع والمتحفز لها، لن تخرج من الأبواب النوافذ المعدة بذكاء الأعراب الغجر للهروب وقت الحاجة ومداهمة الشرطة لهم، يومان فقط كانت فرصة كافية لمعرفة المزيد عن هؤلاء الأعراب، كادت تجن من إفراغ حملها مع هؤلاء الأنجاس، ذكر أو أنثى لا فرق في الحياة في جهنم الحمراء مساكن الأعراب الغجر، لمت ما تستطيع من الحُلي الذهبية والفضية وسيلة إغراء ذئب النساء، اللاهث وراء جسدها والمتعة معه، لن ولم تخر لينال غرضه الدنيء والشاذ حبيبها هو المحتل والامام والعالم بثنايا جسدها الخبير في إدارة فراش المتعة كيفما يريد وتبعا لهواها ولذته، سحقا بإمتاع لا ترغبه ولا يرضيها ولا تعشقه، هيهات بين ذئب عجوز لا ترى منه غير جحوظ عينيه ورائحة فمه العفنة، فرق شاسع بين رائحة دخانه ورائحة غليون الحبيب، ردائها الأسود وظلمة الليل تنجيها من معسكر الأعراب، لم تفكر في غير إيجاد سيارة والعودة إلى

حبيبها الغائب، لم تعجب من نظرات السائق، أفصحت له بالبحث عن ابنة غائبة بعزبة العرب، لم تغمض لها عين الإجابة لم تقنع السائق وعليها اليقظة ولكن إلى أين هل إلى مسكنها ام سكن الحبيب كم تشتاق للقاء ولا يهم مما ستأتى من أحداث، الطرد أم الترحاب يكفى أن تشاهد حبيبها وعشيقها ووالد من سيأتِ أو ستأتى، انصاع السائق إلى ما ترغب به الوصول إلى سكن المحب، التفتت إلى المحلات المغلقة والخالية من المارة والنوافذ المغلقة، صعدت تريد أن تطير في أول خطواتها إلى بيت حبيبها، لكن عليها الحرص مع الدرجات الخشبية الواهية، لن تعطى فرصة له بفتح نيران غضبه أو الطرد أو الفرار منها، ستفتح جناحيها المتسع بحضنها الدافئ وجسدها الطري المتلهف للقاء الحبيب، لن تدق الباب بيدها المرتعشة، ستهبط بكل جسدها عليه، يخلع من مكانه يكسر يهوى لا يهم في سبيل اللقاء والعناق والمعاشرة، ستقدم بين أقدامه ما جلبته معها من الحُلي الذهبية والفضية والكثير من النقود، أنهت درجات السلم بنجاح، الآن حان الاقتراب ولقاء الحبيب، إحساسها بفرحة اللقاء تعمى بصرها بالباب المفتوح والدخول دون أن تشعر كيف دخلت، التفتت إلى

المرآة على الحائط ترقص مع هزات الفراش، حبيبها بين أحضان الصاحبة

***

الشوارع مغلقة حتى المحلات بمحطة الرمل الظلام يحفها لا بائعين، خالية من جنس البشر، فرك عينيه يتمنى إزاحة ظلمة عينيه، لا يدرِ من أين تأتِ هذه الظلمة، أهي من تضاريس عقله المتخمة بمشاكل الدنيا، أم هكذا هو حالها ذهبت الأضواء ورائحة مساحيق النساء في هذا الوقت من مساء الصيف وازدحام الإسكندرية بالخليط العجيب من المصطافين والغرباء، التفت إلى المقاهي والمسارح وادوار السينما مغلقة، لم يهدأ حتى يعرف مغزى تلك المشاهد من الظلمة والاختفاء، عرج إلى شارع صفية زغلول هناك مقهى البلياردو وجلسته المفضلة في الاستكشاف ومراقبة حبيبة المحل المختفية فلا مانع من الصعود والجلوس واحتساء القهوة السادة والنادل المتابع لحركاته ومراقبته لحسناء المحل عسى ان ترحل عنه مشاهد عشيقاته السمينة وصاحبتها، هن على وفاق في مقاسمة الفراش بل التفنن والإبداع في اكتمال خطوات المتعة، لم يتمنى أن تصل به مشاهد اللذة في الغوص واهتزاز الفراش بهن جميعا لم تصبر إحداهن على أن تنتظر، حبيبته السمينة اكتملت

حكايتها بالحمل فيا ترى ماذا سيكون حال صحابتها هي الأخرى، اه من الجنس وسنينه السوداء، دائمًا هو المنتصر بل يتقدم بمزيد من جولات الانتصار، الثلاثة في فراش واحد ومتعه واحدة، صعد على درجات المقهى، لم يكمل الصعود عليه الرجوع عن هذه الخطوة فهي لا تفيد بشيء من أي شيء،يريد الهروب من مهمة اليوم، المغامرة الليلية للسمينة وصاحبتها من الاغارة على ذئب النساء بنجع العرب، كم من محاولات بعدم الإقدام على تلك الخطوة السوداء، يفشل هن في إصرار في الانتقام وسلب وحمل ما يمكن حمله من زوج الأم، خوفه على السمينة وما تحمل في أحشاءها وحبه لصاحبتها لم تثنى أو تؤجل من هذه المهمة هن يردن الانتقام والسطو على ما يخبئ من الحُلي والأموال، لن يقترب من غرفته المغلقة وفضح توتره أمام مرآته الساخرة على الدوام، الهواجس تزحم رأسه، أليس من الممكن أن يكتشف أمرهن، ستكون مصيبة المصائب من عرب الغجر، الانتقام والزحف إليه والتنكيل به، لن يصعد إلى مسكنه سيراقب الطريق المغلق حتى عودة حبيباته وهجوم الغجر عليه، بحث عن غليونه لم يجده في حقيبته الصغيرة المتواضعة، حاول التذكر أين تركه المقهى لم يصعد إليه، لم يصعد أي وسيلة مواصلات، تناوب الغليون بينه

وبين حبيبتاه يصده عن معرفة طريقه ومكانه، رياح الهواجس تهب عليه بريح آخر هو مع إحداهن، هي مصيبة من المصائب القادمة أن يكون مع إحداهن ويا للمصيبة أن يفقد بين ثنايا فراش وحجرات ذئب النساء بعد إتمام المهمة والرجوع بكل ما هو ثمين ونفيس وذات قيمة ولكن الغليون الغليون الخيط الرفيع للوصول إليه، كم حكت السمينة للأعرابي عن صاحب ما تحمل في أحشاءها عند لياليها الأولى مع صاحبتها، انتبه إلى الساعة تدق بالمذياع المغلق تنبأ بمنتصف الليل، لن يهتز بالرجوع إلى مسكنه سينتظر عسى أن تظهر بادرة السلامة وعودتهن أو بقدوم الأعراب والتنكيل به تحسس رأسه كم ستطيح بها أيدي من لا يملكون إلا القسوة والغدر والانتقام، التفت إلى الطريق المغلق والمختفي، قلبه يرقص يطرب بخطوات لم الشمل ونجاح المهمة الليلية السمينة والصاحبة الفرحة تبدوا واضحة عليهن، لم تصبر السمينة قذفت بين يديه ما تحمل من سطو الليلة، لم يعجبه بطئ الصاحبة في المشاركة كما فعلت السمينة، عليه الحرص بعدم الاهتمام بهذا التصرف، لن يهتم ما عليه إلا الصبر على خطوتها القادمة، انتبه إلى يد حبيبته السمينة تخطف ما تحمل الصاحبة ليستقر في يده، لم يسعده الأمر، رد إليهن كل ما حملوه هكذا أراد أن يظهر إليهن

ما يرجو منهن إلا التنعم بالفراش لا غيره يسعى إليه، ازداد طربا هن يقذفن مرة أخرى السطو الثمين بين يديه، ما عليه الآن إلا التنبيه بالصعود على الدرجات الخشبية لغرفته المغلقة

***

الشاطئ المختفي المظلم، كبائن المصطافين تطفوا فوق مياه البحر الجاف، لم يعجبه الأجساد العارية تماما من ألبسة البحر رجالا ونساء، لا عورات لدى الجميع أجساد بيضاء وسمراء تضوي تحت أشعة الشمس المختفية، لا حرارة ليكتمل مشهد العرايا مع مشهد برودة الشمس المشرقة، ساعته الذهبية لم يعجب بها مازالت تذكره بزوج الأم الأعرابي، هي تصر على أن تمكث في معصمه، صاحبته كم هي ماكرة تصر على مشهد زوج أمها وإن كان غائبا، حتى في ليالي الفراش تمنعه من إزاحتها من معصمه، كم التفت إلى حبيبته السمينة هي الأخرى تجحظ عيناها عليها، هن ماكرات خبيثات يعشقن الرغبة على دقات ساعة زوج الأم الغائب، لم يتردد في فكرته القادمة سيفعلها وليرى كيف ستأتي الأحداث مع خطوات النشوة معهن على الفرش، حبيبته السمينة بطنها المنتفخة تثنيها من المتعة الكاملة لن تهتم باختفائها من معصمه، هي تريد الارتواء والصبر في الأيام القادمة ولفظ وليدها،، يا له من

أناني أليس هو وليده أيضًا، لا ولو انطبقت السماء على الأرض ليس بوليده سينكره بل سيعمل على الخلاص منه، كفى من خطوات الفشل في الأيام السابقة، نظر إلى الكبائن الطافية على سطح الماء الجاف، هنا في إمكانه بالخلاص من هذا الوليد بين الكبائن تحت برودة الشمس المختفية وعلى سطح البحر الجاف وبين صخوره القرمزية، انتبه إلى حارس الشاطئ الغائب عن كل ما يدور في رحاب الليل الواسع المنتشر وما سيفعله في الساعات القادمة والخلاص من الزائر الغائب القادم من أحشاء حبيبته السمينة، شعر بالسعادة الغائبة عنه من أيامه ولياليها الفائنة، هنا سيكون مصير الخلاص ونهاية الوليد، الآن عليه إراحة جسده المنهك من سبل وحيل الخلاص، ارتمى على رمال الشاطئ المختفية الناعمة، أزاح ساعته الذهبية من معصمه، كم شعر بالراحة لم يفكر في مواجهة صاحبته والسؤال عنها، ستكون في مأزق سؤالها، ستكشف عن سوءتها وساعات المتعة مع زوج الأم الأعرابي وإن كان من غير رغبتها، حاول مقاومة النعاس الجفون تغلق عينيه عنوة وبدون استئذان، أزاح قلمه وأوراق صفحاته المبعثرة، التفت إلى مرآته المعلقة مازالت تراقبه لن يهتم

سيمدد جسده المنهك على فرشته الساخنة فلا وقت ولا تحدى لمرآته غير أن يذهب في نومه العميق

***

الظلام الأسود والسماء القاتمة تتلون مع تلون وميض البرق شيء واحد لا يستوي الرعد يكسر صمت الليل يفجر أبواق المزامير يهجم عليها بأحزان الدنيا كلها، هي لا تريد إلا صمت وظلمة واختفاء من أي عين راصدة لها وهى في طريق خرابات ترعة المحمودية، بحث شاق وألم يحطم أحشاءها ينذر بقدوم مولودها، هو آت في وقت مناسب للخروج ثم الاختفاء، الأمطار على أشدها سيول من الماء تسقط من السماء على رأسها وهاهو سيهبط بين ظلمة الليل وبريق السماء وهطول الأمطار وآلام الوضع، طريق الموت ممهد بكل سبل الخلاص منه والانتهاء من عذاب الأشهر والعودة إلى حبيبها وصاحبتها رفيقته الثانية في ليالي الحب، تتأوه من آلام القادم وآلام انفراد الصاحبة بالحبيب، حاولت بكبرياء أن لا يصاحبها احد منهم هي تريد أن تكون الفارسة والشهيدة في آن، تنظر إلى السماء تريدها على تلك الحالة الكاملة من اختفاء المارة وظلمة المساكن من حولها، لا عربات في الطريق، لم تقدر من الثبات أكثر من ذلك، ليس هناك وقت لعمل أي شيء يصد عنها مياه

الأمطار من السماء أو في الأرض من تحتها، بركت على ركبتيها وزادت من فرشحة ساقيها، الوليد الآن في طريقه الأسود وموته المحقق، انتبهت إلى نباح الكلاب، الصوت يقترب منها والقادم يقترب من الخروج لا مفر من التمدد على الأراضي الطينية وما بها من أوساخ، صراخ الوليد يخرج إلى الدنيا يزلزل وجدانها، رحل الألم ورحلت كل مشاكلها، حنين الأمومة يطغى عليها تريد احتواؤه في صدرها تعجز عن إسكات بكاؤه أو حتى الجلوس، هي عاجزة مشلولة في الاقتراب منه ولا حيلة لها حتى في ضم ساقيها، نباح الكلاب يقترب لا سبيل لديها إلا الصراخ لنجدتها ونجدة وليدها من أنياب الكلاب المسعورة

***

لم يمنعها البكاء من الاهتمام بسرد حبيبها تفاصيل مصيبتها الكبرى بفقد وليدها وفقدان الوعي، الصاحبة أيضًا تستمع وتشاركها البكاء ومعرفة ما الم بها في الساعات الماضية، هي المتهمة والقاتلة والأم الحزينة بما مر بها من أحداث خرابات ترعة المحمودية ونهش الكلاب المسعورة وليدها، لم يتركوها تنعم به بضع ساعات، لم يتركوا غير العظام حتى رأس الوليد لم يتركوها من أنيابهم النجسة، أفراد الشرطة لم يرحموها من

مصيبتها ومعرفة لماذا كانت في هذا المكان بذاته، شك القتل والخلاص من الوليد يحوم عليها بجريمة هي لم تفعلها، نعم هي فكرة الخلاص ولكن هل الخاطر يؤخذ عليه الإنسان ويعاقب بعد مشاهدة الوليد وبكاؤه ومحاولة احتضانه وضمه إلى صدرها هي لم تقتله كانت تفكر فقط لم تقتله، كان تقرير الطبيب الشرعي المنقذ لها من العقاب، لا يد لها في محاولة القتل الكلاب المسعورة هي القاتلة، أعجبت بمقولة الحبيب المسئولية تقع أولا وأخيرًا على الأمن والدولة في التخلص من الكلاب الضالة وإن كانت غير مسعورة كما كان الحال في الماضي من التخلص منهم والمنفعة من أجسادهم للأسود والنمور في حديقة الحيوان، رحلت تطوف في ترك وليدها لم تحمله عربة الإسعاف حملتها هي فقط اما الوليد فعليه الانتظار أمام الناس حتى تأتى عربة الموتى هو عقاب من السماء أتى إليها لتجلد وتتألم بالموت وكذلك الفراق حتى وهو بعض العظام مع القليل من اللحم، لا يهم كانت تتمنى احتضانه وإن كان جيفة جثة هامدة، يا له من عقاب هي تستحق بل هي شريكة في موته وضياعه بين أنياب الكلاب المسعورة، قبضت على يد الصاحبة تريد أن تنهض والانفراد بعيد عن الحبيب، لا تريد أن تراه أو الجلوس بين يديه كفى ما أصابها من حبه

والإخلاص له، لن ينال منها أبدا عليها العودة إلى مسكنها بيت والدها الشيخ الأعمى، هناك أهلها من الجيران كم وقفوا معها في إتمام زواجه بها وإتمام ما افسد، هو هو الجبان في رد شرفها بل هو القاتل وليست هي وليدها حكم عليه بالموت قبل أن يولد، إثمها بسيط هي تريد المتعة وهو يمتلكه ويمتعها ليل نهار، مسلوبة الإرادة أمام اللذة وإن كان في الحرام ورغم انف الجيران وأهل الحارة، عليها الآن أن تفعل المستحيل من فراق هذا الحبيب والصبر حتى يأتِ إليها الفرج بحبيب يعوضها عما فقدته في حبها الماضي إلى الزوال والنجاة منه، طريق السلامة هو البعد عن الحبيب والصاحبة هم سواء في الوقوع في الإثم والقتل مرات ومرات، هي خلصت من مشكلة الوليد والجريمة لم يبقى إلا عذاب الضمير البادئ في الصحو واليقظة، نفضت يدها من الصاحبة والساحبة لها في الرزيلة وليالي الحب وإن كانت هي البادئة في طريق الحب واللذة، لابد من الافتراق وهذا قرارها الأخير، بركت على الأرض هي فرشتها في المتعة والنوم في آن، تابعت الصاحبة وهى تعتلى فرشة الحبيب ومتابعة آهات الجنس التي فرت منها ولن ترجع أليها، فالغد يوم جديد مع خطوات حب من نوع جديد

***

ازدحام ميدان محطة مصر والتيه في وسط هؤلاء البشر لم تذهب عنه مأساة الأيام الماضية، عذاب حبيبته السمينة ووليدها تصب فوق رأسه اللعنات ووخز الضمير وفقدان الشرف، لا يقدر من رفع رأسه إلى أعلى والنظر إلى السماء، السماء تصب عليه صبا ما فعله في الماضي القريب، التفت إلى مقهى الشيوخ لم يقدر من الاقتراب منها، كثير من الجالسين يعرفون علاقته بالسمينة بنت الشيخ الأعمى، وكيف أطاح بشرفها وعفتها، والآن هي في مستقر بيتها في أحضان أهل حارتها وجيرانها، لا سبيل إلى الاقتراب أكثر من ذلك، يجبن في تلك المواقف كما جبن في مواجهة الزواج بها، مرت شهور ولم يهدأ من عذاب ما الم بها وعذاب فراقها، مازالت متربعة في حنين قلبه إليها، الصاحبة لم تقدر من الوفاء مثل وفاء السمينة، لم توف إلا بالقليل من الحب لا وفاء لها رحلت هي الأخرى، غابت من فراش لياليه، فراش خال من الركاب يركبه وحيدا يطوف به في ساعات الليل يتمنى أن يراهم حتى في منامه، لا فائدة من البحث بجوار المقهى كيف يراها هنا، لا يوجد من كانت تأتى إليه، شيخها الأعمى رحل إلى العالم الآخر، لم يقدر من صد أمنيته أن يرحل هو الآخر، كفى ما ارتكب من أفعال تأتى بالخراب في الدنيا والآخرة، لا فائدة من الخوف، هو الذي

أعماه عن مواجهة الحياة والارتباط بالحبيبة السمينة، سيخطو إلى الأمام سيدخل إلى المقهى، ويحتسى القهوة ويفحص الجالسين أمثاله ومن الشيوخ، سخر من غباؤه أكثرهم غير مبصرين، اطمأن إلى الطاولة التي في الجانب المظلم، تناسب مهمته في البحث عن السمينة عسى أن تمر من أمام المقهى أو تأتِ لأصحاب شيخها الأعمى، يتمنى أن لا يخيب ظنه وتأتى أو تمر من أمامه، يا له من عذاب، استمع إلى قائمة المشروبات من النادل، ينسون جنزبيل قرفة حلبة سادة وحلبة بالحليب، شاي احمر شاي اخضر، أسكته بطلب القهوة السادة، لم يعجبه سكوت النادل وعدم رفع صوته بطلبه المنشود، تابعه وهو في طريقة إلى طاولة الإعداد، كانت الفرحة تغمره لم يعرفه النادل ويعرف من هذا الجالس صاحب الخداع لاحد بنات زبائنه الراحلين، لم يتمكن من صد هياج قلبه ولملمة فرحة اطرافه والتوقف عن التقدم إلى الأمام، حبيبته السمينة هي من تعد طلبات الزبائن، لم يشعر بمراقبة النادل لم يرفع بصره عنها هي كما هي جمال الحب يشع من شفتيها وخدودها الحمراء، لن يرفع بصره عنها لا يهم ماذا سيحل به هو يريد أن تنظر إليه عسى أن يرى بريق الأمل ولو كان في نظرة واحدة، نظرتها تتجه إلى الآخر النادل قبضت علي يده قبل أن

تلحق بحبيبها وإن كان في الماضي، سعادة الدنيا تحتويه وهو يتابع انسحاب النادل مطأطأ الرأس لا حيله له في مواجهة ومنازلة الحبيب، لم يقدر من صد بكاؤه لا يدر أهي للفرح أم طلب المغفرة والصفح عما فعل، اطمئن هي تخلع لباس معمل المشروبات، لم تستحِ من انكشاف بعض لحمها الأبيض الغض، كم هو في اشتياق إليه، هو في طاعة عمياء تسحبه كما تسحب الأعمى، ما عليه إلا الطاعة ومواصلة خطوات الرجوع إلى لياليها وحبها الدافئ

***

تنظر إليه لا تحيد نظرتها عنه مازالت تسخر منه، ألا يكفيها مكثه معها بالليل والنهار على فرشته الساخنة بالعذاب وحائطه الإسمنتي وطاقة النور الصغيرة، محطمة ولكن عنيدة في مواجهة أمثاله العاجزين عن السير إليها ولو بخطوات قليلة، قذف الحذاء والعصا لم تهزم بل زادت من الإصرار من السخرية والتهكم عليه، مرآة ماكرة خبيثة ومعلقة تتابع دون كلل ما يفعله، لا تستحِ من السمينة أو من خطوات الفراش الغائبة والمختفية، لم تهزم بوصول الحبيبة إليه وعودة الصفاء والوئام والمحبة، يا ترى ماذا تريد أهي تريد المزيد من جولات التحدِ لا مانع هو أيضًا يصر على تكملة لم الشمل وإيجاد

الصاحبة الأخرى، اختفاء الشوارع وما بها من أناس وأبنية وأنوار تكتمل باختفاء الصاحبة مضت الشهور ولم تظهر أو يرى بصيص من الأمل في إيجادها بل لم يقوى في الإفصاح للسمينة برغبته بإيجاد الصاحبة، في أي الأمكنة من نجع العرب وزوج أمها هي خطوط حمراء لا يقدر من تجاوزها أو الاقتراب منها، حفيت أقدامه في طرقات وشوارع الإسكندرية بل زاد من البحث عنها في أطراف كفر الدوار وضواحي الريف وبين سواقي الغيطان، لا يجد بغيته وحبه الثاني المرافق للسمينة، لا توجد الآن غير حقيبتها الخاصة المهملة والمختفية بين زوايا حجرته المغلقة، هي الأخرى في قبضة يد السمينة تحتفظ بها ترعاها، كم أخبرته بذكريات الصاحبة بهذه الحقيبة هل هناك من الأسرار بداخلها أو من الأشياء الثمينة لا تريد أن يراها، أسئلة كثيرة وحيرة في كيف الوصول إليها ومعرفة ما بداخلها، هو يريد فقط أن يعرف اسمها وكنيتها هم السبيل إلى البحث والوصول إليها، انتبه إلى ساعة الحائط تعلن بانتهاء يوم عمل آخر، رتابة الحياة تبدأ من هنا مكتب عمله وأصحابه المختفين من الزمن البعيد، لا يدرِ إلى أين يذهب مازال من الوقت الكثير هل يعاود البحث أم يرجع إلى سمينته ليستريح ويطير ويقفز بين الهضاب والتلال ويعوم في بحر الظلمات، لا

لن يرجع الآن، يشعر بشيء غريب يخترق همته وإصراره، يدفعه إلى البحث والتنقيب عن تلك الصاحبة، هل يقترب من نجع العرب ومراقبة زوج أم الصاحبة عسى أن يصل إلى مبتغاه وحبيبته، عليه الحرص في الاقتراب ولو لخطوات قليلة، عليه البحث عن سبل أخرى توصل إلى بغيته ومتعته الغائبة، سيكمل خطواته ولكن إلى مكان آخر عسى أن يأتِ إليه فرج المتعة، حب السمينة لا يشبعه يتمنى المزيد، انتبه إلى من يبتسم له، يا لها من حظوظ سوداء صاحبه الملتحي يغلق الطريق يعترضه، يا له من صديق، لم يقدر من الإفصاح له عن وجهته ولم يفلح من الرد وإقناعه بعدم إتمام الزواج بمن حكى له عنها، هو يريد الخلاص من هذا الصاحب، كفى من صده عن البحث عن الحبيبة الثانية، لم يفلح في إتمام تلك المقابلة الغير متوقعة، صاحبه عيناه الثاقبة وجحوظها لم يفلت منها، هي تفضح كذبه، لم يقدر من صد ارتعاش يده الأخرى تفضح ما يحدث به، التفت وهو يخطو بالخطوات السريعة، صاحبه يتابع خطواته المهتزة، عرج إلى شارع آخر عسى أن يختفي عن ناظره، نظر إلى الشارع المختفي الممتلئ بأشباح المارة، عليه تكملة خطواته إلى نجع العرب، انتبه لمن يربت على كتفه، الأعرابي زوج أم صاحبته وحبيبته، لم يهدأ من تلك الابتسامة

وذلك الترحاب الغير متوقع منه، حاول الاعتذار له عن دخول النجع، ولكن لا سبيل من فكاك يده، الآن عليه أن يستعد لما هو قادم، لم تعجبه تلك الابتسامة الدائمة في وجه الأعرابي، أسئلة كثيرة تزاحم رأسه تدق على فكره، كيف عرفه لم يتقابل معه من قبل، لا يعرف ملامحه إلا من تلك الصورة مع أم الصاحبة وغطرته المميزة يا ترى هل هو مراقب من أيام اختفاء السمينة بالنجع أم من افشى له الصاحبة، أزاح فكرة الصاحبة هي تحبه وتفرمن زوج أمها العجوز المسن، لا حيلة له إلا الصبر في هذا اللقاء، مرت الدقائق ومازال الأعرابي في اختفاء عن خيمة الجلوس أو الحبس في آن، انتبه إلى من تدخل عليه يسحبها من رقبتها حبيبته الصاحبة، ذليلة منكسرة النظرات، أشاح الجلباب عن بطنها، اهتزت أطرافه ببطنها المنتفخة، إذا هي حامل تحمل في أحشاءها ماء المتعة، كانت ركلة زوج أمها كفيلة بان تقع في حجره، لم يقدر من التحرك أو الدفاع عن نفسه بأي أعذار، لا سبيل له إلا الإذعان والرضوخ إلى هؤلاء القادمين إليه المزاحمين للخيمة بأن يوقع على أوراق الزواج، لم يقدر من الإفصاح أو لفظ أي الكلمات، يا ترى اهو صاحب ذلك الماء أم الأعرابي ذئب النساء

***

صعد على الدرجات الخشبية لغرفته المغلقة، ارتمى على فرشته الساخنة التي لا تبرد أبدا، حاول أن يصد النوم لا يريد أن ينام قبل أن يعرف كيف وصل به الحال إلى أن يتمنى الموت والفرار من حياة مل منها وما بها من متعة زائفة، فرك عينيه ما زالت مصرة على النوم، تتحداه مثل مرآته المهشمة على الحائط تراقبه، تريد أن تصل إلى نشوة الانتصار عليه وعلى أحواله بل تريد المزيد، عرف أن يفرمن بيت السمينة وصاحبتها وأحوالها بالمولود جديد، لا يعرف كيف يتصرف الصاحبة تريد الاحتفاظ بالمولود لا تنصت لشكوكه وعدم انتماؤه لدمه وحبه، هي قادرة على الصبر على ذلك الادعاء، لا تريد أن يهدأ وتقر بأنه ليس منه، تشيح وجهها عندما يزكيه إلى زوج أمها الأعرابي ذئب النساء، حتى السمينة لا تريد أن تشاركه في ظنه وشكوكه، لم يفلح في ضمها إلى اتهامه بنكران الوليد، أهي تريد أن تكفر عن وليدها وما فعلت به ونهايته بين أنياب الكلاب، أم حبها للصاحبة وحتى أن قاسمتها لذة الفراش لا يجد إجابات عن كل ما يدور في رأسه وما العمل في الأيام القادمة، من اجل ذلك عاد إلى غرفته المغلقة عسى أن يجد حلًا للخلاص من منهم جميعا، ولكن ما هو السبيل، لا يقدر من ترك عمله أو نقله إلى مكان آخر سيعرف ويجدهم أمامه كما

كان الحال برحيله إلى الصعيد يجب البحث عن حل آخر، يبعده عن غرفته وعمله وأماكن سياحته بين الشوارع والحواري، التفت إليها مازالت صورته بها تتأرجح بصورته المقطعة، مرآته الماكرة الخبيثة، أيبحث عن مكان آخر ليفكر ويجد حلا بعيدا عنهن وعنها، لا سبيل هنا مقره ومركزه وقلعته وإن كانت خشبية مهشمة، التفت إلى صندوق أسراره في الركن البعيد الغائب من غرفته، مازال يحتفظ ببعض غنائم الأعرابي زوج الأم، ابتسامته تملأ وجه يتمنى أن يخرج لسانه لمرآته ستخسر هذه الجولة سيفتح الصندوق ويخرج كل ما أحضرته السمينة والصاحبة حبيبتاه في مهمة ليلة السطو على نجع العرب، ستفرج همومه ولن يخشى شيئا من الأيام القادمة، ركع على ركبتيه، الحُلي الذهبية والفضية المطعمة بفصوص الماس يمتلأ الصندوق بكل ما هو نفيس وغال القيمة، علا صوت ضحكاته نظر إليها ولا خوف من تكلمة فرحته بمغارة على بابا في غرفته لوح بحركة من كفيه، كان يتمنى برفع قدميه إليها أصابعه فقط تتحرك تلهب غضبها بالإصبع الملتهب لها كما كان حاله في إشعال حب حبيبته السمينة وصاحبتها

***

ادلع يا رشيدي.. على وش المية، سيب الدفة وامسك إيدي، على وش المية..

اه من رشيد وحلاوتها وحلاوة أهلها وبحرها الهادئ الرائع وسحر أهلها البسطاء الماهرون في الشح والبخل والسك بالضبة والمفتاح في كرم الضيافة، كل هذه الأحوال لم تهزه أو تذله أو تصد عنه ما يبغى من تحقيق الأحلام والليالي الملاح والمتعة بما كان حاله في غرفته الغائبة المغلقة، لم تبعد رشيد عن الإسكندرية إلا القليل من المسافات والقليل من الساعات هناك السمينة وصاحبتها وما تحمل في أحشاءها من ماء حبه وهنا يجد متعته بما يحمل من نفائس الذهب والفضة والماس من صندوق ذكرياته الغائب عنه المراقب ليل نهار من الملعونة الساخرة الماكرة الخبيثة، مرآته المحطمة، كان يتمنى أن ترى حاله الآن وما يفعله من المتعة في كل شيء، شراؤه المقهى والفندق في أعلاها لا ينقصه إلا الحب ولكن بشروطه الثابتة في وجدانه وخزائن عقله الملتهب بكل ما هو بعيد عن أغلال القيد وإمساكه في يد امرأة، الم تشبع بما تفعل به الصاحبة والسمينة من مصائد الوقيعة به بسجلات المأذون وقيود لا يراها تناسب هواه وتمزجه كالطير السابح في السماء يهبط ثم يطير في شتى البلاد، عرف أن يفلت من الصاحبة

والعقد على يد زوج أمها الأعرابي، لم يخفى ابتسامته بالاسم المزيف المكتوب في صكوك العقد، لن يقدر احد من أن يلاحقه ولو جمعوا شتات الأرض، عمله ووظيفته ذهب في أرفف الأرشيف بعد أن قدم استقالته لن يلاحقه احد ولن يقع مرة أخرى في براثن قيد امرأة، هي الوحيدة التي تراقبه وتلاحقه ولا تشبع، أزال جميع المرايا من الحوائط بالمقهى حتى في حجرات سكنه لا مرايا ولا حتى في حجرة الاستحمام الغائبة والمختفية كاختفاء زبائن المقهى حتى أهل رشيد أشباح تسير هنا وهناك، تختفِ دائمًا عن بصره وجحوظ عينيه، التفت إلى بائعة اللبن والسمن البلدي والجبن القريش، يا لها من ماكرة تختفِ وراء قطع الجبن لتفعل ما يحلو لها معه في الصباح والمساء، كم غنى لها من بين شواشى الذرة غمرية بتغنى، اه يا ست بدارة وكلماتك الساخنة تكملها له عطشانة يا هل ترى ولا د قلبي، اخذ يراقبها تصعد على الدرجات السلم هي حصان شاحب يلهث وراء قطرات من الماء، ترتوي وتملأ كيسة نقودها بما يفيض به عليها، لا تمل من الارتواء تريد المزيد، كم نهرها بالامتناع بالتزين أمامه، مرآتها تتركها قبل ان تصعد إليه عرفت عداوته لها ولأمثالها من المرايا، كم فهما كلهن سواء في المراقبة والسخرية والتنعم بالضحك عليه بين

خطوات حبه معها أو ما أخفى من حبه القديم التفت إلى النادل النحيف وهو يقفز بين المقاعد وتلبية طلبات الزبائن، يقع على الأرض كم هو ماهر من الإمساك بالمشروبات ومتابعته وهو يصعد على درجات السلم خلف بائعة الهوى والحليب الطازج، انتبه إليها لم تخلع رداءها مشهد لم تفعله في المرات السابقة، عليه الإنصات للأخبار القادمة، هناك من يتحرى عنه صباح اليوم، لم يتوقع أن يعثر عليه بهذه السرعة العجيبة، انتبه إلى طرق الباب، أشار إليها فهمت ما يريد، تزن الجبن وتفرغ الحليب، دارت به الأرض لا يقدر حتى على تحية القادمين

***

لم تهدأ حتى تعرف أين الحبيب الهارب، غير متواجد بالعمل دارت أقدامها في كل الأمكنة التي يرتادها، الأيام تمر وجسدها يهزل وينكمش من شقاء البحث، الصاحبة في الشهور الأخيرة من الحمل، هو كما هو الجبان الكاره لكل المواليد ولكل الحوامل، ستنهى خطوات البحث ستختمها بالبحث الأخير ويا هل ترى سيكون الأخير؟! محال هي حبيبته السمينة صاحبة الذكريات والليالي الملاح، تصعد بحذر على درجات السلم المتهالك، كم صعدت عليها في سهولة ويسر، الآن تهتز أردافها لا تقدر سيقانها في حملها، شتان بين صعود الحب

وهذا البحث المضني لقلبها وأقدامها، دلفت إلى الحجرة المغلقة، مازالت فرشته ساخنة،رماد غليونه لم ترحل رائحته، كم أحبت تلك الرائحة والشفاه الغائبة، فركت كفيها به، عطرها في ساعات الحب الغائب والمفقود، ما عليها الآن إلا الراحة ولو لساعات قليلة في فرشته الساخنة عسى أن يهبط عليها من أين؟ من السماء من الباب المغلق أو من بين ثيابها التي بدأت في الابتلال والخلع في آن، التفتت إلى الصاحبة وبطنها المنتفخة لا تقدر بالصعود مثلها على فرشته الغائبة الساخنة، لا تفكر في المزيد من الحب، قانعة بما تشاهده من حب، هي فقط الملكة صاحبة صولجان الجنس والمتعة مع الحبيب الغائب، لم تأنف من رائحته النتنة، الحال تغير بخطوات لم تفهمها أو تكملها معه، ليس هو الحبيب الغائب ليس هو من يمتعها، وجهه الغائب ليست ملامحه ولا نظراته ولا قبلاته، هو شيء آخر لم تعهده من قبل، كم عرفت من أباها الشيخ الراحل لعنة تلك الخطوات حتى وإن كان من يفعلها على يد مأذون، لم يستجب لما تريد من حبها القديم ومخبأها المتعطش للشهوة وإن كان في الحرام،لا تريد أن تلاحقها اللعنة وفعل ما يغضب السماء، أصرت على ما تريد أمام إصراره هو الآخر الغائب لما يريد، لا لن تخضع لنزواته سترفع قبضة يدها على رأسه المجنونة

عسى أن يرجع عما يريد، جحظت عيناه وأشار إلي الماكرة لم يعبأ بدم انفه وقبضتها القوية، انتبهت إلى ما أشار بأصابعه المهتزة الفاشلة فيما يبغى من المتعة، تتأرجح وتضحك وتسخر، مرآته الماكرة عدوته اللدودة، لم تقدر من أن تنهض من سقطتها من فراشه الساخن وغياب الصاحبة تحزن لليقظة التي أتت إليها دون استئذان

***

جبان هو في كل شيء حتى وإن كان بين رواد العزاء، يختبئ بين أكتافهم لا يريد أن يرفع رأسه إلى أعلى، هو من أهم من يتلقوا العزاء، أمه الراحلة في هذا اليوم الحزين، كان يتمنى أن لا يعثر عليه احد حتى وإن كان للحاق بوداع أمه إلى مثواها الأخير، لا ينصت إلى صوت الشيخ العالي المستفز في ميكرفون السرادق، لا يعرف اهو قرآن أو الغناء أو صدح بشيء لا يفهمه، فشل في سؤال الشقيق كيف عرف مكانه وسكنه ومقره الجديد، عليه الصبر في إكمال مناسك الغسل والذهاب إلى المقابر ليختفي مرة أخرى، ستكون أول خطواته هي التخلص من المقهى والفندق وسكنه والبحث عن مكان آخر للاختفاء، حتى بائعة الهوى سيجد من تكون التالية في المتعة والتلذذ، مازال صندوقه الغائب ممتلئ بكل ما يريد من بالذهب

والفضة، كنز علي بابا لا يعرف سره أحد ولا قاسم له، هي الوحيدة التي تتجسس عليه وتراقبه وتسخر منه وتضحك عليه، مرآته الماكرة لا سبيل للوصول إليها دائمًا يعجز من تحطيمها أو نزعها من الحائط الغائب عنه كغياب تلك الساعة وهذه اللحظات، انتبه فقد أزف الرحيل وعليه الإسراع لحمل فقيدته الغائبة عنه من زمن فائت في عربة حمل الموتى، التفت إليها تنظر إليه تقترب منه تريد الإمساك به، لم يصدق أن تكون هي هى، عليه الانسحاب والاختفاء منها، كيف وصلت إليه وفى هذا الوقت، انتبه إلى شقيقه يهمس في أذنه:

المغسلة تريد أن تسلم عليك أخبرتنا بأنها تعرفك جيدًا

قدماه ترتعش لا تحملاه تهتز يداه كل أوصاله ترتعش، أراح يده من حمل جثمان أمه ولكن لا سبيل للفرار عليه المواجهة وإن كان في هذا الوقت الحزين، السمينة حبيبته مغسلة الموتى من النساء، ما كان عليه إلا أن أشار بيده أن تبتعد، وعليه أن يندس بين مشيعي الجثمان، انتبه إليها تشارك النساء في مسيرة المقابر، الأفكار المجنونة تسابقه، فر من هذا ابتعد اختفى لا تنظر ورائك، لا تلتفت إلى أحد فرصتك الآن أن ترحل، أمك في رعاية أهلك وسرعان ما تختفي بين الرمال، أنت لن تختفي ستمسك بك وتعنفك أو تفضحك، ستجر إلى

الصاحبة وتذل وتعترف بحبك في أحشاءها، لا سبيل إلا الفرار، فر اهرب اختفى أيها الجبان، التفت إلى سوق ساعة كرموز وحائط المقابر، هنا تأتى بوابة الهروب والاختفاء، النساء تفترش الأرصفة وتزدحم بين المحلات، كحالها يوم التقى بها، دلف إلى الشارع الضيق وما يحوى من بالات الأقمشة هي ملاذه الأخير في الهروب منها والبحث عن مكان آخر يستقر به

***

جلست تستريح من عناء هذا اليوم، الشمس في طريق الزوال واختفاء الناس بين الشوارع والطرقات، مازالت رشيد البلد الريفية الصغيرة، معاناة من أول خطوة في السفر إليها في عربة الأجرة من الإسكندرية، لم تصبر باكتمال الأعداد بها، أمرت السائق بالتحرك وتحملها عدة أنفار في المقاعد الفارغة، ولكن ذهب كل هذا هباء وضياع بعض ما تدخره من غسل الموتى وصدقات المساجد، لم تخبر الصاحبة بأحوال الحبيب الغائب في لقاء العزاء ولم تخبرها برحلة اليوم، علمتها الحياة أن تكتم الكثير من الأسرار كمثل ما تكتم من أحوال الحب واشتياقها إليه، راجعت خطوات البحث بداية من الفندق والمقهى حتى شقته رحل وترك كل شيء، لا يوجد له اثر في

رشيد كلها، هناك الأمل الوحيد انتظار بائعة الجبن الفلاحي كما اخبرها نادل المقهى، أعطاها الأمل في الخطوة الأخيرة من أمل العثور عليه ومعرفة أين ذهب، لم يبقى إلا القليل من الوقت حتى تسرع باللحاق بسيارات العودة إلى الإسكندرية قبل هبوط الليل وسؤال الصاحبة أين كنت حتى هذا الوقت، التفتت إلى النادل مازال يراقبها بل ويتتبع حتى نظراتها، لم تقدر من إجابة تساؤله، لماذا من تبحثين عنه يكره النظر إلى المرآة حتى وإن كانت في المقهى وبين مقاعد الزبائن، امتنعت عن الإجابة هي تعرف حبيبها ومراقبة المرآة ليل نهار في غرفته الغائبة، لن تفشى أسراره لن تبوح بأي شيء حتى وان علقت على منصة الإعدام، ستسعد بالموت في سبيل لحظات تقبع في حضنه تمتص رحيق الحب المفقود الآن والى متى سيأتِ اللقاء، لم تصبر أكثر من ذلك عليها الرحيل البائعة لم تحضر لا سبيل لمعرفة أي شيء سترجع خائبة خاسرة ذليلة مهانة منكسرة عطشى لرخات الحبيب، بل زاد انكسارها وحسرتها، البائعة كانت عشيقته تمكث معه الساعات، لم يخفى النادل أي شيء عنها، شيء واحد مازالت تجهله وتتمنى معرفته، من أين أتى بكل تلك الأموال في امتلاك المقهى والفندق وتركه عمله الحكومي، إجابة واحده لا ترضى بها، يمتلك ورث من عائلته،

ضحكات الألم تفضحها أمام النادل، هو نزيل غرفته المغلقة الغائبة ودرجاتها الخشبية المتهالكة، لن تعود إلى بيتها وصاحبتها وما تحمل في أحشاءها، ستصعد الدرجات الخشبية ستزور غرفته المغلقة، ستطفوا بين فراشه وفرشته الساخنة الغائرة، ستعمل المستحيل من ابتلاع أنفاسه ولعق عرقه ومنازلة قبلاته، غاصت في أمانيها وزادت من سخونتها، ستغار المعلقة وتزداد حسرتها لن تجعلها تتأرجح وترقص وتسخر من حبيبها، هي قادرة على أن تفقأ أعينها والنظر إليه، مرآته الماكرة أنظري إليَّ أنصتِ إليَّ، ستشهقين مما تسمعين، بل ستسقطين من على الحائط الغائب، ستتفرقى إلى قطع صغيرة، تداس عليك بالأقدام سترمين في النفايات، لن تقدرِ على قتل حبى وحرمانى منه، اه اه اه أيها الحبيب استمع وأنصت وافتح قلبك واقترب منى، اه اه اه من قلبى وحيرته اهه من شوقى ولوعتى، همت بخلع جلبابها وما تحته من الأغطية، ستتعرى ستكيد ستلهب أركان غرفته المغلقة، سيسمع أنينِ وحنيني وعذابي وآلامي، أشارت إليها تأمرها أن تسمع وتعذب بل وتشاركها في عذابها السرمدي:

الأولة اه والثانية اه والثالثة اه

الأولة اه حبيبى راح ولا جانى

والثانيه اه ماحد في بعده واسانى

والثالثة اه ياريت يعود لى من تانى

الاوله اه حبيبى راح ولا جانى وهجرى طال بقيت وحدى

الثانية اه ماحد في بعده واسانى ودمعى سال على خدى

الثالثة اه ياريت يعود لى من تانى يهنى البال وانول سعدى

من يوم ما عدا وغاب غاب النعيم وياه

هجر وفات ليي العذاب والصبر فين القاه

يا فرقة الاحباب صعبة على قلبى

اه اه اه

الاوله اه فين انت طمنى

الثانية اه البعد حيرنى

والثالثه اه يارب صبرنى

انتبهت إلى سائق العربة يخبرها بسلامة الوصول إلى الإسكندرية

***

الظلام يسترها من أعين المتلصصين على خطواتها هي والسمينة زميلة عشق الحبيب الغائب قبض يدها يهدئ من فزعها في انتظار الوليد القادم، لم ترضى بالذهاب إلى شاطئ قنال المحمودية، نجحت في تحويل مسار القذف والقتل وانهاء

ما تحمل في أحشاءها، ميناء البصل منطقة خالية من المارة في المساء، حوانيت بيع القطن وكهنة المصانع بأبوابها الكبيرة القديمة المتهالكة لا فرق بينها وبين بوابة مقابر الموتى وحجرات القبور، هناك يوجد حارس المقابر وهنا لا يوجد حتى الكلاب الضالة المتلهفة لكل لحم عفن أو طازج مثل ما في بطنها المنتفخة، هي في حيرة مع السمينة الأماكن كلها متاحة لعمل وإنهاء مشكلة الوليد، لم تنسى إحضار بعض قطع القماش لحمايته حتى يخرج الصباح عسى أن تتلقفه يد حانية ترعاه أو تفعل به خير منها، لم تلتفت إلى بكاء السمينة هي مصرة على تكملة المهمة من القذف به والعودة سالمة إلى بيت زميلتها السمينة، هي تبكى لماذا وهى المعلمة الأولى في قتل الوليد، نهشته الكلاب وخرجت سالمة من القيل والقال وسؤال الشرطة فيما فعلت، لماذا تبكى الآن؟! ضربات الألم تقطع أحشاءها، الوليد قادم قادم لا سبيل إلا التوقف في المكان الملائم لتكملة القذف به والهروب والعودة سالمة، لم تجزع من يد السمينة وهى تكتم أنفاس صراخها بقطع القماش، عليها أن ترضى وتتحمل كل المشاق في سبيل الخلاص وترك الوليد في قارعة الطريق، زادت من فتح ساقيها وسخونة مياه وما تحمل بها من مولود جديد، أخيرا خرج لم يسقط على الأرض

استقبلته السمينة الحانية حتى ولو للحظات تمر، لم تصبر من إخراج قطع القماش من فمها حملته هي الأخرى بنيها وليدها حبيبها، ثمرة حب الغائب الهارب والمختفي، لم تصبر السمينة أكثر من ذلك حملته وتركتها في دمائها، لم تقدر من الصبر على الفراق غير قادرة على فعل زميلتها السمينة، أطلقت صرخاتها في كل أنحاء المكان، هرولت تجر أقدامها إليها ترجوها بعدم الفراق، شد وجذب ومقاومة هي تريده والأخرى تريد الخلاص، التفتت السمينة إلى سيارة الشرطة تتجه نحوهن، لم تقدر من الفرار، قذفته إليها لم تهتم بقبض الشرطة عليهن، كان اهتمامها بفرحة الصاحبة بوليدها تحتضنه في صدرها

***

لم يكن يشعر بحلاوة الأموال وإيقاعها السحري أن يصل إلى هذا المستوى من النجاح والخلاص من اتهامه بالزنا ونسب مولود الصاحبة، والخروج من إدارة الشرطة بهذه السرعة، لم يمكث إلا ساعات قليلة كان الجميع يحترمه بل يتعامل معه بأدب واحترام، طاقم المحاماة نجح في فشل اتهامه والادعاء ببنوة المولود الغائب عن جلسة التحقيق، السمينة اقدمت على الشهادة وتنحية اتهامه، تخلت عن الصاحبة في اشد حالات

الاحتياج إليها، شهادتها الزائفة بالصاحبة، "هى تعرف الكثير من الرجال"، طاقم المحاماة لم يفعل الكثير غير أحاطته بهالة من الوقار، السمينة لسان حبها له هو سيد الموقف في نجاته وتنحية الاتهام، لم يتردد في تكليف احد المحامين بحمل كثير من المال إليها، هي تستحق وترجو شيئا آخر، حبه وعودة الوصال، عيناها تفضحها هو الوحيد الذي يعرف ماذا تريد وماذا ترجو، يهتم بشيء آخر ماذا ستفعل مع الصاحبة عند العودة والالتقاء بها، هل سيدوم الوفاق والحياة معا كما كانوا؟ وماذا ستفعل بالمولود هل ستخلصها منه بمحاولة أخرى؟ أم سيفترقان ونهاية الحب الضائع والمختفي معه والغائب عنهن؟ وكيف هو الآن لم يرحل عن الإسكندرية، اهو تأنيب للضمير والعودة إليهن والمصالحة والوصال الذي غاب؟ نعم هو بعيد عنهن هو في اطراف الإسكندرية، لم يفكر في العروج إلى مسكن أهله ومعرفة أخبارهم بعد رحيل أمه، لم يعرف شيئا عن أباه هل مازال على قيد الحياة أم مات هو الآخر؟ شيء واحد لا يقدر على هجره والغياب عنه، غرفته الغائبة ومرآته الساخرة، هل مازالت معلقة تنتظره وتسخر منه كما كان في الماضي، التفت إلى السائق يراقبه من خلال المرآة، اقترب من مسكنه عليه مغادرة العربة والخلاص منه ومرآته الماكرة،

كلهن سواء في المكر والمراقبة والسخرية والرقص سواء بالعربة أو على الحائط، عرج إلى الشارع الغائب والمساكن المختفية، صعد درجات السلم الخشبية المتهالكة، لم يقدر من صد الخوف من السقوط كما كان في الماضي، حياة الرفاهية أنسته الصعود بثقة، انتبه الباب الخشبي حاله كما كان في الماضي الغائب، الإضاءة الخافتة والسكون يحيط بالمكان، عليه الحرص في وضع أقدامه، لا يريد أن يشعر به احد من الجيران، لمس فرشته الغائبة والمختفية، لم يشعر إلا بدوار رأسه وسقوطه على الأرض بين أقدام الصاحبة ومولودها الغائب

***

جلس في حديقة ميدان محطة مصر، ليبتعد عن كل من يعرفه، هنا لا يجلس إلا لصوص الدرجة الثالثة، يسطون على حقيبة امرأة أو حتى قرطاس فاكهة، يراقبون الجالسين أمثاله، مطمئن لا يحمل إلا شيء واحد الهموم ومتاعب الدنيا كلها فوق رأسه المزدحمة، لا يوجد بها غير المتاعب منذ شهور ودع امرأته هو وأولاده، لا يقدر على معرفة أسباب رحيل ولده الأكبر، كل أولاده حوله إلا هذا العاصي العاق، كم يشبه شمس السماء تظهر وتختفي بين السحاب، لم يقوى على المواجهة

معه ومعرفة ماذا فعل له، لم يميزه أبدا بين أشقاؤه واخواته، لحظات وداع أمه واختفاؤه بين المشيعين، لم يقدر من الإمساك به ومعرفة لماذا حاله هكذا؟ كم حزن لمعرفته بمغسلة الموتى كما اخبره ولده الأصغر، انتبه إلى النادل يحضر له كوب الشاي، لم يلتفت إلى ملابسه الرثة وملامح وجه أصحاب قطاع الطرق واللصوص، يرضى ويسعد أن يجلس بين تلك الحثالة من الناس ويزهو بدفع قيمة المشروب من الجنيه والنصف، جميع المقاهي الشاي لا يقل عن ثلاث جنيهات، لا تفرقة إلا في مشهد واحد هناك يترك طاقم الشاي كامل من الماء والشاي والطاولة المزينة بفرشتها وإن كانت متواضعة، هنا مناولة الكوب في يده ثم الذهاب ومراقبته حتى ينتهِ بافراغ الكوب في جوفه ليجده أمامه بيده الطويلة ليأخذ الحساب، يا له من حساب متواضع، اختفى مرة أخرى بين متاعبه المتشابكة والمختفية باختفاء ولده الأكبر، لا يجد حل ولا يجد سبيل لمعرفة مقره ومكانه، لا عمل ولا سكن ولا أي شيء، شيء واحد من الممكن الركون إليه والسعي له المغسلة يجب البحث عنها والمواجهة ومعرفة ماذا تعرف عن ولده الأكبر، لم يأخذه الحماس لتلك الفكرة، يستحى أن يسأل عن من احضرها لهم في غسل امرأته، كيف يعلل سؤاله وهل سيقبل الإجابة بهذه

السهولة أم يواجه بسؤال آخر ماذا تريد منها؟ امرأتك رحلت ولا يوجد متوفية لكم للبحث عنها؟! انتبه باخراح قيمة كوب الشاي، النادل القرصان قادم إليه، لم يفكر في الرحيل من مكانه، اعجبته فكرة هي من عجائب الجلوس في تلك الأمكنة، العثور على بائع الأكفان هو السبيل المختصر لمعرفة المغسلة أين تسكن وأين ترتاد من أماكنها المفضلة والتقاط أثار خطواتها، عليه القيام بأول خطوات البحث، شراء أكفان في سبيل الصدقة لأحد المساجد، فرحة كبيرة أن يهتدي لتلك الفكرة الناجحة، عليه الاقتراب الآن من حانوت بيع الأكفان، لم ينتبه إلى السيارة المسرعة في اتجاه خطواته، لا حيلة إلا في التوقف ليرى ما هو مصيره أمامها، كانت خطوات قصيرة من بائع الأكفان ليعرف أين المغسلة

***

نظر إلى من حوله وكيف القى علي هذه الطاولة الباردة الملساء، و برودتها وجسده المغطى بقطعة القماش، لا تستر إلى قليل من عفته، لم يتعرف على تلك الوجوه التي تحيط به، فقط ولداه ليس بينهم ولده الأكبر، يرى ويسمع مطيع لمن حوله من ايدى من يصبون عليه الماء صبا، لا يقدران يعترض على برودة الماء والدماء تزحف حوله وعلى الأرض، كان يتمنى

أن يسمع الجميع صوته، السيارة المسرعة اصطدمت قذفته إلى أمتار بعيدة، السائق صورته معلمة في ذاكرته المفقودة والراحلة، فاقد الحراك فاقد كل شيء حتى من رفع إصبعه إلى احد أبناؤه، يتمنى أن يعرف أين ولده الأكبر، كان في الطريق إلى مغسلة الموتى ومعرفة أين يختفي ابنه العاق، لا يعرف من تأتى هذه الأنوار وتلف من حوله وأعلاه، أنوار لم يرها أبدا في حياته، إلى أين يجهز بهذه الطقوس الحانية عليه، الرداء الأبيض يلف به وتسبل عيناه وتغمى، التفت إلى الأنوار مازلت معه حتى بعد ان غمى بالقماش الأبيض، كلمات تردد من حوله " الأمانة" جاهزة للرحيل والدفن، عرف الآن مصيره ورحيله من هذه الدنيا لا يرى يسمع فقط وينصت ويهتم بحديث أولاده عن ما بذلوا من مشقة في معرفة مقر ابنه الأكبر ولكن لا فائدة هو غائب دائمًا في حياته وفى هذه اللحظات الذي يتمنى أن يرى للمرة الأخيرة أبناؤه مجتمعين حوله، لا يرى بناته ولو في اللحظات الأخيرة، صوت النحيب يصل إليه من الخارج، صوت ابنته الصغرى وصراخها يعذبه، يريد أن يوهب الحياة مرة أخرى لوداعهم وتوصيته لهن بعدم الصراخ والنحيب لا فائدة انتهى ويدون اسمه في عداد الراحلين أمثال امرأته الراحلة، هو يلحق بها يجاورها بل ويشاركها في تراب

الموتى، فقد كل شيء، شيء واحد مازال معه صوت المودعين وأزيز سيارة الإسعاف ونفيرها المزعج الشؤم، اكف كثيرة تحمله لم تكن حانية قاسية شديدة القسوة في الحمل ليست مثل من غسلته وصبت عليه الماء وكفنته بالقماش الأبيض، لماذا القسوة ولماذا خفض رأسه إلى أسفل وأقدامه تعلوا، هو مقلوب شعر دون أن يرى، أشياء ثقيلة تلقى عليه لا يعرف ما هي، الدفء يحتوي جسده الذي كان في طريقه إلى الارتعاش من شدة البرد لا يعرف أهو برد الهواء أو برودة الأكف وبإنهاء عملها، طرق الاقدام والأصوات تبتعد عنه، صوت واحد قريب منه يسمعه بوضوح يدعوا له دعوات كم رددها في وداع أمثاله من الراحلين، أبناؤه يدعون له ويشاركهم ابنه العاق، حضر أحب أبناؤه إليه

***

صعد إلى غرفته المغلقة بعد عناء ذلك اليوم من وداع والده الراحل والمختفي كما اختفت أمه منذ شهور، نجح في الإفلات من أشقاؤه من معرفة أين يقيم وما هي أحواله، انتبه إلى السمينة هل ستحملها درجات السلم المتهالكة، اخبرها بوجود الصاحبة ووليدها في غرفته المختفية وتحت مراقبة مرأته الماكرة، الآن سيجتمع الأحبة ويتمتع كما كان يتمتع في

الماضي القريب، خطوة واحدة يريد أن يفعلها، الخلاص من المولود مهمة شاقة ولكن وعدته السمينة بإنهاء ما يعكر صفو حبه لهن جميعا، لم تسعد بخبر وجودها كما كان في الماضي، لا تريد أن تشاركها في حبه وفراشه والتمتع مثلها معه، الماضي غير الأحوال وعليه الصبر أولا في الخلاص من مولود الصاحبة، هو يريدهن لا يفرق في المتعة بين السمينة والصاحبة، قبض على يد السمينة يريد ان تدخل معه ليرى ما وقع المفاجأة على الصاحبة، انتبه إليها تضحك تكاد أن ترقص الغرفة خالية لا توجد الصاحبة ولا مولودها، التفت إلى المرآة على الحائط تترنح مع ضحكات السمينة، لم يهتم بهن اهتم بالبحث بين أركان الغرفة عسى أن يجد أي شيء يهدأ من المفاجأة، كان يعد لمفاجأة الصاحبة، انقلب الحال المفاجأة له هو وحده يتخبط في معرفة أين رحلت ولماذا رحلت؟ دارت به الغرفة كما دارت في لقاؤه بالصاحبة ومولودها والسقوط بينهم، يسعد الآن في السقوط في أحضان حبه الأول والقديم، السمينة تتلقفه تحنو عليه بجسدها الممتلئ وحضنها الدافئ، لن يفكر في الخطوات القادمة، المتعة بعد الغياب ما أحلاها، هي هى كما كانت في الماضي القريب، نظر إليها بكل الرضا والنصر عليها، لم تترنح أو ترقص، يتمنى سقوطها من على

الحائط، ان تحطم وتداس تحت الأقدام مرآته الماكرة، التفت إلى السمينة تشاركه في فرحة اللقاء والانتصار عليها، التفت إلى السمينة ترتعش تشهق لا تقدر على الصراخ، التفت إليها ترقص وتترنج على الحائط الصاحبة ووليدها وزوج أمها الأعرابي فوق رؤوسهم

***

جلس معها في على درجات المسجد، هي لم تبدى أي علامات الحزن تحاول أن تزيح عنه ما الم به من مصائب وضياع ثروته والعودة إلى أيام الفقر الماضية، الأعرابي زوج أم الصاحبة اخذ كل شيء حتى الصاحبة رحلت هي الأخرى مع وليدها، السمينة كم هي مبدعة في الإخلاص له، لم تفر هي الأخرى تلازمه وها هو يجلس معها على أعتاب مسجد المرسى أبو العباس، تؤدي دور الشحاذة بذكاء أمام المصلين، ايدى العطاء الرباني تقدم لها الكثير، اما هو تلتف السبح وعقود الخرزة الزرقاء في عنقه، أعواد البخور تفوح روائحها للمارة يلوح بها للمارة ورواد المساجد، هنا مقر العارفين في قبورهم يأتي إليهم من كل حدب وصوب، يتبركون ويطلبون ما يحلوا لهم من أماني، بخوره من سبل التبرك والتقرب إليهم، سبحه تعشقها زائرات بيوت الرضا والغفران، الأيام الماضية كانت

حلم وراح مع بزوغ شمس النهار، لم يتمنى أكثر من إيراد يوم أخر من النقود عسى أن تكفيهم ليوم آخر، التفت إلى السمينة تهرول باللحاق بالسيارة القادمة تزاحم الشحاذين في الفوز ببعض النقود، لم يقدر من الوقوف أكثر من ذلك عليه اللحاق بها وسحبها من بين إطارات السيارة، لم يهتم بالتفاف الشحاذين ومحاولة إسعاف حبيبته السمينة، كان ينظر إلى الرجل الثرى يهتم هو الآخر بها، أشار إلى أصدقاؤه الشحاذون أن يهدؤوا، عليه الآن الصعود في السيارة مع الرجل الثرى، لم يلتفت إلى المرأة الجميلة بجانب حبيبته، هي وحدها كل أمانيه وحياته ومحبوبته حتى وإن جلست معها جميلة الجميلات، لا وقت لحب جديد ومع من؟! تلك المرأة الثرية ماذا ستفعل به؟ رحلت أيام المغامرة والمقامرة مع الحب، أشار إلى الرجل في الاتجاه إلى المستوصف بجانب الطريق، هو اقرب مكان لإسعافها، كان عليه الثرثرة مع الثرى حتى تخرج السمينة من غرفة الجراحة تحتاج لبعض الغرز، جسدها وطراوته لم تتحمل صدام إطار السيارة، لم يسعد بمتابعة الرجل لحديثه، امرأته هي الأخرى لم تهتم، عليه غلق فمه حتى تخرج حبيبته ويطمئن عليها ليعودوا إلى سكنهم القديم ويرحل الثرى بامرأته، انتبه إلى الطبيب واخباره عن حالة حبيبته، دارت به الأرض

بإعلان أنها ستفقد وليدها واحالتها إلى مستشفى عام أو إتمام ما يلزم من علاج وإجهاض والتكفل بالمصروفات، اكتملت سعادته بقيام الثرى بدفع ما يلزم بل ابدى أكثر مما هو مطلوب والخلاص من المولود الغائب

***

التفت إليها ليس معهم احد في غرفته المغلقة، خاطر لم يأتِ له إلا الآن الحديث معها بل والتفاهم وعقد مصالحة أو هدنة من سجال الحرب والسخرية الاستهزاء به والضحك عليه، لا يدرى ما إجابتها عليه هل تقبل الهدنة وبعض الهدوء والبعد عن حلقات الكيد له ومنحه بعض الراحة، عليه أن يجرب لن يخسر شيئا، تسخر منه لا ضير كم سخرت منه في الماضي الغائب والقريب، هي فرصة لابد من تجربتها وتمنى النجاح فيها، الصاحبة رحلت والسمينة مازالت في المشفى ستخرج بعد عدة أيام، الثرى كان سخي في العطاء لها وله أيضًا، لم يبخل في المن عليه ببعض الورقات النقدية، لن يصرف منهم شيئا عليه الحفاظ عليهم حتى تخرج سيمنته وتكملة رحلة الأيام، التفت إليها مازالت تراقبه، هل عرفت بما يدور في رأسه من أفكار تخصها هي دون غيرها، لا داع للإرجاء عليه الآن التحدث إليها، كم من محاولات لعزلها

ولتختفي إلى الأبد، الأبد لم يأتِ بعد في عزلها من حياته وغرفته المغلقة والغائبة، مازالت في عنادها تنظر إليه تتحداه، تثق في عجزه من الاقتراب منها، هو يقذفها بأي شيء تحت يده، العصا والغليون فقدوا منه في غياب واختفاء من مشهد القذف والعدوان عليها، لن يتراجع سيعلن الحرب ويحطمها بما يمتلك من قوته الغائبة والمختفية والمقيدة، خطابه وكلماته هي ما يمتلك ويعرف كيف يصوب إليها ويمحها ولومن الحائط الغائب نزال سرمدي يترنح بين حوائط غرفته المغلقة والغائبة أشار بإصبعه أنت مازلت تعاندين وتسترقين السمع وتشاهدى ما يحلو لك وما لا يحلوا لى، لا تنخدعي بحاجة النساء إليك، هن غانيات عاهرات يعشقن أحضاني وليالي الحب، انت أضحوكة بينهن تتخبطين في مراقبة أجسادهن، السمينة تكرهك بل وتفضحك وتحوز إعجابي في انك نكرة صماء وان كنت تبصرين وتسترقين السمع، لا مكان لك في أي شيء، عاجزة لا حيلة لك إلا على الحائط الغائب والمختفي، الصاحبة بلهاء وجاء إليها من يزيد خبلها وفراغ عقلها، يوما ما سأصل إليك وأحطمك بل وأهشم بقايا زجاجك المحطم، سأنال منك ولو بعد حين انتظري يومك آت لا محالة في محوك من حيأتِ الغائبة والمختفية، أنظري وتمعني وأنصتي لن اهزم أبدا ولن تنال

منى، أنا الفارس احمل كل الأسلحة وإن كانت غائبة، أشار إليها بالنقود الورقية، أنظري معي من النقود كما كان في الماضي المختفي، سأرحل سواح بين البلاد وحدي لا احد غيري لا سمينة ولا صاحبة ولا أنت أيتها الساخرة الماكرة، انتبه إليها مازالت تتأرجح على الحائط، تزهو وترقص وتنظر إليه .

***

التفتت إلى ميدان المساجد، لم يتغير شيء ممن كانت تحفظه من هذه الأمكنة، مسجد المرسى أبو العباس في مكانه لم يرحل، مسجد الاباصيرى مازال ينظر إلى بحر ميناء الشرقي، سيارات المريدين لبيوت العبادة تأتى وترحل، الباعة السيارة في سباق مع كل من يأتِ من الزوار، لم يختفي إلا الغائب دائمًا، حبيبها لا تجده في أي الأمكنة، تعرف خطواته كاملة في ميدان المساجد أو حيى السيالة والحجاري وسوق العيد، لا تجد إجابة عن كيف رحل وهو في تلك الحالة من ضياع كل شيء يمتلكه، هي ثروته في البداية والنهابة لماذا رحل والى أين ذهب؟ أرهقها البحث وحفيت قدماها وانتفخت، لم تعد بحالتها الماضية حادثة السيارة والوقوع بين الإطارات سلبت منها كثير من القوة والاحتمال، تخرج من المشفى إلى مشفى آخر

صعب عليها احتماله والصبر عليه، العثور على الحبيب الهارب، قذفت أعواد البخور داست عليها باقدامها لا تريد ان تحيا في هذا العالم الناكر للحب السخي في أساليب العذاب والتعذيب، أين تذهب هي؟ ترجع إلى مسكنها القديم وتجتر ذكريات أباها الشيخ الراحل أم تذهب إلى غرفته ودرجات السلم المتهالكة، أم ترجع إلى المشفى ومحاولة العمل بها، هم في احتياج لأمثالها لرعاية المرضى، لا تقدر على اختيار أي الحلول والرحيل إليها، أول يوم من الخروج من المشفى تواجه مصيبة المصائب، طيبة ظنها في غياب الحبيب قبل خروجها بأيام وضعت له المعاذير والحجج، الآن ماذا تفعل وماذا تريد؟ ليس أمامها إلا الصبر والبحث عنه كما كانت في الماضي، لم تهتم بأعواد البخور تحت أقدامها، مازالت كيسة بضاعتها ممتلئة بالبخور، ما عليها إلا أن تتابع زوار المساجد وعرض بضاعتها وانتظار عطف السائرين، لم تنسى من تبديل طرحتها السوداء بطرحتها الخضراء، تتمنى أن تكون من الاولياء الصالحات، هي في جوار أصحاب البركات، تتمنى أن يبنى لها قبر وصوان مثلهم يأتِ إليه الزائرون يتمسحون بازيال فرشة قبرها المصون، لا يوجد في ميدان المساجد قبر واحد يحمل اسم الصالحة أو العارفة أو البتول، جمعيهم من الرجال

هذا مغربى وهذا شامى وهذا من الأندلس، لفت ودارت وبحثت عن قبر واحد يحمل (فلانة المرأة الصالحة بنت فلان)، أباها الشيخ الأعمى الراحل كم نهرها في السؤال أو البحث بين قبور العارفين بالإسكندرية، يخبرها أن الإسكندرية كانت عطوفة على النصارى، مارى جرجس، كنائس كثيرة تحمل أسماء من بني جنسها، هل تغير من جلدتها وتبارك الصليب وتزين بها صدرها وتختفي بين الأديرة والكنائس، التفتت حولها خائفة من تصنت العارفين في قبورهم لفكرها المجنون، هرولت إلى شاطئ البحر هناك الرياح والأمواج تفرق وتخفى ما تفكر بعمله ولا يسمعها أصحاب البركات، لا مانع لديها من الرحيل من ميدان المساجد إلى ميدان الكنائس لترى حظها عسى أن يأتِ إليها بخير كفى ما تحمله من ذكريات عفنة وحقيرة ومؤلمة، انتبهت إلى قرص الشمس في طريقه للغوص بين أمواج البحر، سيحل الليل ولم تصل إلى قرار يقذفها لترسو في شاطئ الأمان، لا حيلة إلا أن تقرر الآن في طريق العودة، يا ترى إلى مسكنها أم إلى غرفة الحبيب ودرجاتها المتهالكة؟! أم إلى أين؟.

***

كل شيء ساكن هادئ خاوى من أنفاس الدخان من النارجيلة أو من فم النساء والرجال والصبية هدوء يكتم الصرخات أن تخرج منها لتعلن عن مصيبتها الكبرى، عثر عليها زوج أمها لم يرحمها من المعاشرة يمسك بها بقيد من نار وليدها الرضيع، ترضخ له خوفا على ثمرة حبها مع الحبيب، كم أخافها باختفائه وضياعه منها، هي تعرفه وتعرف مصائر من قضى عليهم من الرجال والنساء حتى رحيل أمها فيه من الشكوك الكثير، عزبة الغجر يخافون منه ويهابه الكبار والنساء، لم تفكر بالرحيل مرة أخرى والهروب منه ولكن إلى أين؟ الحبيب المختفي أم السمينة لا تجد ملاذ غيرهم، سيأتي بها كما أتى بها من بين فراش الحبيب بغرفته المغلقة والمختفية ودرجات السلم المتهالكة، لا أحد حولها إلا الصبية الصغار يلهون بين الخيام والحجرات، التفتت إلى الوليد مازال يمتص رحيق صدرها، لا تعلم اهو الحب أو الجبن أو الاثنان في عدم الخلاص منه كما فعلت السمينة مع وليدها، هي أقوى منها قادرة على اختراق ساعات الزمن والفرار من كل ما يقف في طريق الحب والحبيب، عليها أن تجد حل من الخلاص والهروب من عزبة الغجر وزوج الأم الذي لا يرحمها وإن كانت ترضع وليدها كم يشبه محب، عيناه انفه وثغره الملتهب

دائمًا، ستعاود المحاولة والهروب والبحث وإن طال بها الزمن حتى وإن تحولت إلى عجوز، الحب لا يفنى أبدا ولا يرحل برحيل الأيام، هو دائم الخضرة طالما كان في القلب يرعاه ويغذيه ويتذكره، اه منك أيتها السمينة لن تمتلكيه وحدك سأكون بجوارك كما كان بالأمس القريب، سنعلوا معا ونهبط معا ونتأوه معا ولا نفترق، التفتت إلى طريق الهروب خلف الجدران والخيام ومن وراء ملاعب الصبية، جيل مستقبل نجع العرب من اللصوص والقتلة والتجارة بالنساء، خطوات ويزول خطر صدها عن ما تبغى من الحرية والانطلاق نحو الحبيب، أزاحت طرحتها من وجه وليدها، كانت تكتم أنفاسه خوفا من البكاء، تريد الخلاص لها وله من عصابات الغجر والعودة إلى حبيبها، لم تقدر من التقدم إلى الطريق العام، الوليد جحظت عيناه لا تخرج أنفاسه ساكن سكون تخافه ولا تتمناه أبدا، بركت على الأرض تهزه وتقبله عسى أن يفيق من موته ويرجع إليها لا سبيل من نجاته، هو جثة هامدة صبغة الموت تغشى عيونه وجسده، رحلت إلى خلاص السمينة من وليدها على حافة ترعة المحمودية، هنا لا حافة ولا ترعة، الشوارع ممتلئة بالناس والسيارات والسكن، حتى الكلاب الضالة اختفت لا تراها عسى الخلاص منه بين أنيابها، ولا سبيل للعودة إلى

نجع الغجر، زوج الأم سيقتلها لن تعرف بالخلاص منه والدفاع عن حياتها وإن كانت بين فراشه يعتصر رحيق جسدها، تترنح في خطوات مرتعشة وخائفة من كشف سوءتها بموت وليدها، عليها أن تفكر ما السبيل للخلاص من مصيبتها، ليس هناك الوقت الكاف في طريق الخلاص، عليها الإسراع قبل دخول الليل، انتبهت إلى الكنيسة في نهاية الشارع الهادئ، لا به إلا مساكن صغيرة ومتفرقة حتى الإضاءة خافتة، اقتربت من باب الكنيسة ما عليها إلا أن تبرك على الأرض وترك وليدها، هي فرصتها الأخيرة والخروج من مصيبة الموت ومصيبة زوج الأم، دارت بها الأرض الدنيا كلها تدور، السمينة تخرج من باب الكنيسة وتبتسم لها .

***

تلسعه حرارة الشمس، لا تكتف فوق رأسه ولكن أقدامه تحترق من الحصى وسخونة الأرض، لم يكتف بطرده دون أي من الأشياء التي تعينه على المسير حتى إلى اقرب الأمكنة ليجد معين يساعده في محنته وإن كانت صعبة الحل، ترك الإسكندرية ليذهب إلى الصعيد عسى أن يجد ضالته في محنة حياته البائسة والغائبة والمختفية، سراب وزيف وكذب وسخرية من السماء، أفكار مجنونة طائشة إلى أقصى حدود

الدنيا، حتى كهف الجبل خادع منافق يرحب بمن هم مثله في كل زيف، حياة المدينة وبين الناس ومخالطة الجميع وغض الفكر والبصر عما يبدوا من أشياء تحرق الدنيا والدين، هي جنة في الأرض ما أحلاها وأمتعها من معايشة هؤلاء الأفاقين المنافقين أصحاب اللحى الزائفة والألبسة البيضاء، أقنعة قادرة على الإقناع والخداع والصيد في شباك فكرهم الأهوج والمعوج، لم يفرق بينهم وبين أمثالهم المصلين في رحاب المساجد، الآن قناعته بأنهم سواء في كل تلك الحيل هم مسلسل ينفذونه ببراعة وإحكام من الضحك على العامة وكل من يريد العون من السماء، اهو الذي عرفه عندما أتى إلى الصعيد للعمل والتعرف عليه في كهفه في بطن الجبل، نعم لم تمض المقابلة السابقة أكثر من ساعة واحدة، خدع بانعزاله عن العالم مثله كما اختفى عن زملاؤه المرتشين في تسهيل كل الأمور، السمينة حبيبته بارعة في الرسو معها في بر الحب واللذة والمتعة والارتواء بما يحلو له، غياب الصاحبة اربك دوران الحياة معه، ذهب إلى أماكن التيه والضياع، وها هو يرجع إلى بطن الجبل ومجالسة الشيخ العابد الناسك هو وزملاؤه اتباعه في فكره وحياته المنعزلة والزائفة، كم عانى كثير من مشاهد أصحاب اللحى والجلباب القصير وخطوات أقدامهم وانحناء

ظهورهم أمام شيخهم الكبير، حركات خادعة لم يتقبلها أو تعجبه، يشعر بان هناك أشياء مختفية غامضة غائبة مثل غرفته ودرجات السلم المتهالك، هي وهؤلاء في طريقهم في السقوط وانكشاف سرائرهم، عجيب أن يصبر كل هذه الأيام، ينصت إلى ثرثرتهم وحديثهم على من في الخارج من الناس، ليس هناك فارق بينهم وبين من يتكلمون عنهم، لا يوجد إلا شيء واحد، قيام الليل خشوع وتلاوة وأدعية وتوسل وبكاء، كم عانى مشقة قيام الليل وسماع الدعاء والإجابة بآمين، وكم أراد معرفة ما خلف الستائر، همهمة وأصوات ناعمة وبكاء الأطفال، لم يمل من معاملتهم الخشنة له وإهماله حتى في تناول الأطعمة، شعوره بأنه نكرة أو قط أو كلب عابر سبيل يأكل فتات الطعام ثم يذهب إلى الطريق، لم يقدر على الصبر على كل تلك الأمور، جاءت اللحظة الحاسمة في مناقشة فكرهم الجاف والضال، لم يرضى أن يسمع مثل هؤلاء مريدين الشيخ الكبير وهز رؤوسهم بالرضا بكل ما يلفظ من كلمات، لحظة انفجار وهدم المعبد على رؤوسهم، الناس بالخارج ليسوا بكفار ولكنهم في شد وجذب مع الحياة من معاصي وشرك وخداع، هم يشهدون الشهادة وانتم كذلك، لم يتوقع أن يثور الشيخ بإجابته، نظرات وغمزات لأصحابه ومريديه، ليصل إلى حالته

حافي القدمين لا يستره إلا الجلباب المستعار من احد صحبة الكهف المتأرجح بين تأييد الشيخ أو الكفر وذهابه إلى زمرة الكافرين بالخارج، التفت إلى الطريق العام، وصل إلى بر الأمان والبعد عن شر كان من الممكن أن يؤدِ به إلى القتل كما سمع من حوارات بقتل كل من هو غير تابع لجماعتهم المزعومة، نظر إلى المارة في ساعات النهار الأولى، ليله مضى في السير من الكهف حتى وجد غايته الطريق إلى بر الأمان، لا حيلة له غير أن يلتفت إلى الحوانيت والمنازل المغلقة، كم تشبه حارته وأهلها الغائبون، ما عليه إلا الانتظار على جانب الطريق عسى أن يأتِ إليه الفرج الذي يتمناه، حذاء يستره من فضيحة الأقدام الحافية .

***

التفتت حولها لم تعجب بتنسيق الحجرات والردهات والممرات المتناثرة بينهم، تعجب بهذا الهدوء والسكون الذي يحيط بهؤلاء الناس، كم هم نبلاء في تقديس مبانيهم، كم تشبه المساجد القديمة بميدان حى المساجد، هناك آيات قرآنية وهنا صلبان منحوتة هي الأخرى مثل آيات المساجد، لا يمكن إزالتها أو مسخها، شكرت السمينة كثيرا بالخلاص من الوليد الميت بعد أن كتمت أنفاسه، هي لم ترد قتله وقت الفرار من

نجع العرب تريد فقط عدم البكاء حتى تخرج سالمة من هذا الوكر النجس وزوج الأم الزاني بها، لا يشبع من التمتع من أمها الراحلة ظمأ الشهوة لا يعرف له شبع، انتبهت إلى طرق باب حجرتها الصغيرة المتواضعة في كل شيء من فراش وقارورة مياه ومرآة صغيرة بالكاد ترى وجهها، زيارة كل ليلة راهب الدور التي تسكنه، لم تتأخر في استقباله، انحناء ظهره ولحيته الكثيفة وشاربه المتدلي على ذقنه تطمئن له وتطيعه، ما عليها إلا الإنصات لتراتيل الصباح والمساء، لم يعجبها الشاب الراهب المصاحب له، حركات خطواته تعرفها وتفك شفرتها من الكذب والنفاق ومكر الثعلب الذي يريد أن ينقض على فريسته، لم تصبر على ما يريدون عمله من خطوات زوج أمها الأعرابي كان فردا واحدا أصبحوا اثنين، يا له من سخاء في مشاهد الحب تحن إليها ولكن ليس مع هؤلاء، الحبيب الغائب الهارب منها ومن وليدها، لم توافق على مراسيم وطقوس زواج لا ترضاها أو تفكر حتى في قبولها، الراهب الكبير كم جاهد كثيرا بإقناعها بالزواج ومباركته، لم يفهم أو تغاضى عن الفهم في الأيام السابقة بهذا الزوج ابن الكنيسة من نظراتها وعدم مجاراته في حتى الحديث عن العرس والعريس، الآن فقط انكشفت الحيلة وذهبت حيلتهم ادراج الرياح، لم تفزع من

نظراتهم إليها، انهم لا يعرفونها جيدًا ويعرفوا تاريخها في الصمود والعناد وحبها القديم الغائب،لن ترفض إجابة صريحة وسهلة في الارجاء أو الرفض، (اعطونى بعض الوقت)، أطلقت ابتسامة ساحرة للراهب الصغير والعريس القادم، لم تهنأ بابتسامة الراهب الكبير كم تشبه ابتسامة حبيبها بنبأ حملها منه وانتظار الوليد القادم، أغلقت باب الحجرة عليها الآن البحث عن السمينة الغائبة والمختفية لم تشاهدها من عدة أيام، أحكمت إغلاق الباب وما عليها إلا الاستعداد للهروب والرحيل حتى وإن كانت من غير السمينة، هي دائمًا هكذا ترحل .

***

لم تمل من الانتظار وفقد الأمل، ترتب في الصباح فرشتها الخاوية من أنفاس الحبيب وفى المساء تنصت إلى أي دقات على سلم غرفته المتهالكة، من حين لآخر تنظر إليها تحاول أن تخدعها بابتسامة وهز جسمها بين المقاعد وفى الطرقات، أردافها تكيد لكل من مثلها من الإنس والجن وهى كذلك تهتز وترقص أردافها، لم تقدر على تحطيمها أو إزالتها هي الأخرى لا تقدر من المساس بها أو إزاحتها وقذفها من النافذة المغلقة، مرأة ساخرة عنيدة مراقبة حتى لأنفاس من حولها، تحوم بنظراتها عليهم ولا تمل وتأخذ راحة من تلصصها المقيت،

خمس أيام على هدا الحال لا ترى أي بصيص من الأمل أو تهب عليها رائحة الحبيب الغائب والهارب والمختفي، صاحبتها أيضًا تدق في دهاليز رأسها، كيف تركتها وهربت من الكنيسة، سخاء جسدها فتحت لها أبواب الكنيسة على مصراعيها، لا ضير من مشاهدة مفاتنها الراهب حارس الكنيسة المتعطش لجسد أنثى القنوع بالمشاهدة دون اللمس أو الغمس في متاهات جسدها الأبيض المتعطش لرخات الحبيب الغائب، حاولت بكل ما تملك من خطوات الحب أن تتماسك ولا تعطيه أكثر ممن أن يشاهد وكان من حظها انه لا يقدر أن يتعدى تلك الخطوة فقط يبحث في صدره على صليبه المقدس يتحسسه ويطلب النجاة من مفاتنها وجسدها الممتلئ إلا وكانت فتحت له أبواب جسدها، متعطشة للحب وإن كان مع راهب الكنيسة، ضمت ساقيها لا تريد المزيد من فتح أبواب شهيتها للمتعة وإن كانت وحيدة كما كان في سابق أيام عزوبتها وألم نقص خطوات الحب من الكمال والاكتمال، فارق كبير بين العزوبة وبوابتها المغلقة وما وصلت إليه من فتح صهاريج ماءها وإكمال ما ترغب من الإشباع والتلذذ، الجنس الغائب مع الحبيب المفقود كم تحن إليه وتتمنى لقاؤه، عليها أن تنحي الماكرة من الاهتمام بها، يوجد المطلوب عمله الآن الوصول

إلى الكنيسة والعودة بالصاحبة، انتبهت إلى دقات درجات السلم المتهالك، هناك من يصعد إليها، نظرت إلى الماكرة على الحائط أخرجت لسانها يا ترى الحبيب قادم؟

***

التفت إلى الشوارع المختفية والغائبة، كم يحن إلى حارته ومسكنه ودرجات سلمه المتهالك فلا سبيل له ولا ملجأ إلا غرفته المتعطرة برائحة الحب وسطوة الشهوة، تمتلكه ليل نهار لا يعرف لها خلاص ولا منتهى، تجرى في دماؤه وتستقر في عقله، تردد في الصعود إليها، ما الذي يخافه ويخشاه، لم يقدر من خداع عقله، الماكرة الحاقدة المتربصة له في كل حين وعلى كل ما يفعل من خطوات، حتى خطوات غيابه ومغامرات الكهف وكهنوت الدين والناسك وعشيرته، هرب من خداع النسك ليقع في اشد ضراوة من الخداع، امام المسجد المنقد له من الم الحصى في أقدامه الحافية والجلباب المرقع، لم يدرى انه الوجه الآخر لناسك الكهف ولكن بصورة مختلفة ومبهرة، أكرمه كثيرًا وأعطاه ببذخ لم يبخل عليه من أموال ومسكن خاص له يتربع فيه ويعمل ما يشاء، شيء واحد كان يفزعه اجتماعات الليل عنده وفى إحدى حجرات مسكنه الموهوب له من هذا الامام، وجوه مختلفة من الملتحين

وغيرهم ممن لا يحملون صفات اللحى، وكم أعجب بهؤلاء النصارى بينهم حاملي الصليب في ايدهم، كم سعد بوجبات الطعام المختلفة أشكالها وأنواعها والفاكهة والمياه الباردة، لم يتمكن من سماع أي شيء مما يدور في الغرف لا يستطيع أن ينصت أو يسمع للأحاديث التي تدور، حاول كثيرا أن يختلط مع تلك الزمرة من الرجال لا فائدة الإمام يصده بكلماته الرقيقة الحانية (لم يأتِ وقتك بعد)، لا يهتم بها يهتم بشيء واحد تلك المرأة وترددها عليه في الصباح لتعيد ترتيب كل شيء، صامته ثغرها مغلق غلقا تاما من أي حديث ولو حتى ابتسامة تغنيه وتنعشه، مراقبته لها بين الحجرات أوحت إليه بكثير من الخفايا تحتويها وتصدها من الانفجار، لم يتردد في أن يفجرها ولو بعد حين، طرحتها وعباءتها تخفى الكثير من جمال يثق في وجوده، كفاها توحِ بسنوات عمرها من رحيلها من الأربعين إلى الخمسين من العمر، لا تحمل أصابعها من الحُلي الذهبية، هل هي زوجة الإمام أو شقيقته أم إحدى بناته أو ماذا؟ بعدد الأيام التي قضاها في سكنه الجديد لم تكن كافية لمعرفة من هي؟ تأتى فتشعل ناره وتشغل فكره ثم ترحل، تتركه في غليان العطش والبحث عن الارتواء، السمينة غائبة والصاحبة لا يعرف مكانها، مستقر حبه وارتواؤه غائب مختفي ولا أمامه

إلا تلك الحورية وإن كانت غير جميلة أو صغيرة، لا يهم ولن يفكر فيما تأتى إليه من عواقب ما عليه إلا الإشباع وحتى لو علقت له المشانق وغرف الإعدام، مسح العرق من جبهته، تحسس نتوء رأسه بما أصابها من ضربات من تلك المرأة، أفسحت له الطريق للغوص ولكنها تراجعت في لحظاتها الأخيرة، لا يدرى هل يقظة الضمير أم يقظة الدين كلاهما سواء يصدان عن إتمام رغبته وإن كانت بين ردائها وطرحتها، لم يتوقع أن تأتِ النهاية بمشهد ضربات قبضتها وصدها والهروب من السكن، وها هو الجبن يسرع به من الفرار ومواجهة الإمام، اقترب من سكنه، التفتت إلى الشوارع الخالية والمختفية، عليه أن يصعد كفى ما عانى من مشاق السفر والعودة إلى الإسكندرية وحجرته ودرجات سلمه المتهالكة

***

نظرت إلى الصغيرة على الحائط، لا ترى إلا وجهها جسدها لا يرى وما ترتديه من ملابس الكهنوت والوقار البيضاء، عرفت أن ترتب كل شيء والرحيل من الكنيسة، لم تنسى من إخفاء ما سطت عليه من الأواني الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة والصليب الذهبي للتبرك به حتى تخرج من

سجنها الصغير وإن كان في داخل كنيسة، دلفت إلى ممر الغرف لا يوجد احد يعترض طريقها، تعرف جيدًا تلك الساعة من الراحة من كل شيء من العبادات والتنزه وأشياء أخرى لم تفهمها جيدًا من الأصوات داخل الغرف أهي تراتيل نسك أم تراتيل متعة ولذة، تفشل ولا تهتم عليها الاهتمام بشيء واحد الوصول إلى البوابة الحديدية السوداء، جسدها يرتعش وينتعش للوصول إلى غايتها من الخروج والعودة إلى الحبيب الغائب والمختفي، لم تفكر في السمينة أين هي الآن وكيف تخلت عنها ورحلت، تعرفها جيدًا لا تفكر بالانفراد بالحبيب هم دائمًا معا في كل خطوات الجنس والتنعم به، لم تكن خائفة فكم فعلت مثل هذا في الشهور الماضية والرحيل من نجع العرب، ولا خوف على وليدها فقد رحل إلى دنياه وإن كان في قبو الموتى بين عظام الراهبات والرهبان خدام الرب، انتبهت إلى الساعة المعلقة في ساحة الكنيسة، دقاتها تغنى عن الأجراس، منتصف الليل ورواد الليل النائمين هي وحدها اليقظة في هذا الوقت، تنتقل بحذر بين الأشجار والزهور تختفِ وراءها تطمئن ثم تعدو بخطوات أخرى لتقترب من بوابة الخروج والانطلاق إلى حريتها التي كانت ستقفل في يوم وليلة بالزواج بالراهب الشاب واطاعة الراهب الكبير فيما تراه في عينه من الاشتهاء الجامح

والمستتر بين طيات كهنوته ولحيته، تتأرجح أهو حب أبوي أم حب آخر يذكرها بزوج أمها الأعرابي الزاني بهن في وقت واحد، كم من الفوارق بين الزنا بمحب والزنا الآخر، فرق شاسع وعميق بين الامتاع والتنعم وبين العذاب والتأفف، ألم المتعة يختلف، صدت ارتعاش جسدها لا وقت لهذا الآن، اقتربت من البوابة السوداء، حان وقت مواجهة الحارس والخلاص منه والفرار إلى الخارج، جحظت عيناها جسدها كله يرقص، سعادة وفرحة لم تعهدها من قبل، السمينة تحتض الحارس في صدرها هو نائم ينعم بصدرها اللين، أشارت إليها بالخروج وهدوء فرحها حتى تكمل من ازاحة رأس الحارس من على صدرها وتكمل خطواتها واللحاق بالصاحبة السعيدة

***

حرارة الشمس تصده من تكملة السير في حواري وشوارع الإسكندرية، أرهق من المسير والرجوع عن تكملة الصعود على درجات سلمه المتهالك، لا احد ينتظر عودته أو السؤال عنه والاطمئنان عليه السمينة والصاحبة كم خدعهن يكفى ما فعل معهن، عنده الخلاص وعندهن الإخلاص، لا سبيل لمعاودة الحنين والحب عليه البحث عن طريق يوصل به إلى نهاية تلك المشاق، اهو عقاب ربانى يأتِ من السماء أم غضب

الوالدين الغائب عنهم والمختفى من رضاهم ودعاؤهم، التفت إلى حديقة محطة مصر كم هي باهتة بائسة لا تحوى إلا الفقراء المساكين أمثاله، عليه أن يسترح على احد المقاعد وينتبه إلى من يجلس بجانبه، اللصوص وأصحاب الخداع من الملابس القديمة والوجوه الكالحة والاستعداد لنادل مقهاهم وكوب الشاي من الماء الساخن ولون الشاي، لا طعم له لون اسود لا يعلم من أين يأتِ اما سخونته فيعلم من أين؟ من حرارة الشمس تصهر كل شيء بداية من رأسه وحتى كوب الشاي، لا يعرف إلى أين خطواته القادمة، نفدت نقوده وفصل من عمله، شيء واحد يمنحه بعض الأمل، خاتم إصبعه وبريق قطعة الماس وإن كانت صغيرة ما عليه إلا التوجه إلى صاغة الحُلي وبيعه، لن يذهب إلى شارع فرنسا هناك سيتم التحري عن فاتورة الشراء، يسلك الطريق الآخر الصاغة القديمة بالباب الأخضر، اطمئن إلى الخاتم مازال في إصبعه لم يسطوا عليه احد في ساعة جلوسه بتلك الحديقة المشبوهة والغائبة والمختفية، لم يتردد في الدخول والبيع، هاهو الحانوت المتواضع في عرض الحُلي، سيكون غايته وينهى صفقة البيع، يعرف كم سيرى من نظرات وفحص للخاتم وله لا يهم، تناول النقود على مضض، سعر بخس يقل كثيرا من قيمته لم

يعترض يكفى ما يرى من فحصه من أخمص قدميه إلى شعر رأسه، لا وقت لشرح ظروفه وأحواله، أسرع بالرحيل والبحث عن بعض الطعام والعودة إلى مسكنه والصعود على سلمه المتهالك، الجوع والعطش تعمى فكره عن أي شيء آخر ولو حتى البحث عن غليونه الغائب عنه والمختفِ.

***

الماكرة تنظر إليهن تراقب كل ما يجرى حولها، تنصت إلى الحديث الخفي والشجي والمختفى والغائب، السمينة ما اشد مكرها وحنكتها في استغلال كل شيء من حولها، استطاعت أن تحصل على عطف الكنيسة والانحياز إلى فكرها والمحبب إلى الراهبات والرهبان، لماذا انتم تسمون كنائسكم بأسماء النساء بالإسكندرية وتنتشر بين الأحياء وحواريها؟! أحبوا حديثها واستراحت للرد العجيب من الكاهن الكبير، الإسكندرية لم تحنوا عليكن وانتم كنساء لم تصبروا حتى يأتِ الفرج بالعناية والاهتمام لترحل نساء الإسكندرية إلى بلد المعز، تحت سطوة القوة والحكم والاهتمام، هناك مساجد كثيرة أخذت حظها من السطوة والتمتع بالجاه والشهرة والمجد، السيدة نفيسة والسيدة زينب وغيرهن من النساء المشهورات على أبواب المساجد، الإسكندرية احتلت من الشارب واللحى والعمائم

والسيف والعلم، لم تنعم الإسكندرية بأهلها الجميع جاءوا من بلاد أخرى إما رحالة أو لنشر العلوم والمعارف، نحووا النساء من كل شيء، عقدة شجرة الدر كانت أقوى بالإسكندرية واستطاعت أن تنخر في عقول الرجال، كليوباترا وفعلتها في حب انطونيو وبعثرة كنوز أجدادها عليه بدلا من الحرب استطاعت أن تسخر وتخدع هراميكس كبير الكهنة والحصول على ما هو ثمين، عقدة النساء احتلت عقول رجالها من التنحي والإهمال وحتى حب الجنس في مواخير البغاء،أمواج الإسكندرية لم تغنى في طهارة وغسيل أدمغة الرجال، أعجبت برد الكاهن الحكيم، لم يتركها في حوار الحيرة أعطاها الكثير من الإجابات التي شفيت به غليلها والرحيل من ميدان المساجد وتستقربين عقول مزدهرة بالديانة والعلم والثقافة، هي تحب تلك الحياة، مكثت عندهم بين التنعم بكل الملذات من شراب وطعام وهدوء يريح الأعصاب، شيء واحد كان يهزها ويرعشها وينكد عليها هذه الحياة الرغدة، الجنس وخطواته وغياب محب المختفي والهارب، أفصحت للكاهن عن رغبتها في المعاشرة ولكن مع من تهواه وتحبه، لم تسعد برده الغريب (هنا تجدى كل ما ترغبين إلا وجود الحبيب لا نقبله ولا نسمح له بفعل ما ترغبين فيه)، كانت نقطة الفراق والمغادرة

والهروب في اقرب فرصة وفى أحسن الظروف من الفرار، الود وابتسامتها الحانية أسقطت الكثير من الحجب بينها وبين الراهبات وكان من هؤلاء حارس البوابة الحديدية السوداء، يعشق أجساد النساء يحتفظ بهن بين رداؤه البني وحلى الأزرار الصفراء الصور الملونة المسلوبة من مجلات الكنيسة، كم أفشى لها بنظرة واحدة إلى جسدها السمين السخي في اللحم والشحم والحلاوة الزائدة يخر راكعا في تبتل وخشوع لجسدها، لم تبخل عليه من المستور وراء قطعتها السوداء الصغيرة، تصبر في اطالته الزائدة وجحوظ عينيه، التفتت إلى الماكرة على الحائط مازالت تنصت إلى حديثها مع الصاحبة عيناها تكمل الحديث إليها، هزت رأسها نعم كنت أتابع أخبارك من خلال الجلوس معه، لم يبخل في اعطائى كل التفاصيل عنك حتى خبر تقدم الراهب بالزواج بك، من هنا كنت احضر كل ليلة في المساء انتظر ساعة فرارك وهروبك، ولم انتظر كثيرا جاءت الساعة السعيدة لك ولى وأتممت ما أريده في دقائق معدودة، قفزت على الصاحبة تقبلها وتضمها في صدرها اللين الطري، نظرت إلى من تتابعها وتتصنت ولا تمل وتكل العدو اللئيم ولو كان في مرآة معلقة على الحائط أشارت إليها

بإصبعها الأوسط تهزه مع فرحة جمع الشمل مع الصاحبة، لم تقدر على الرد وإجابة سؤالها ولكن أين محب؟!

***

لم يشعر بدوار الحياة وزوال كل شيء إلا في هذه الأيام الباقية من عمره، خيوط العناكب تحتل جدران الغرفة هي ستائر النهاية لأيامه ومجده وسطوته بين بني أهله من العرب، نجع العرب كله يهمله ولا يهتم حتى المجالسة في المساء كما كان في الماضي القريب، ينبذون منه ويهربون حتى من كلمات قليلة تعطيه بعض الأمل في الوفاء، هم يفعلون هذا مع الغرباء حتى وإن عاشروهم مئات السنين، رحيل قوته وانكشاف زوال كل شيء كان يميزه عن بني جلده من الأعراب، لا يرى إلا الصبية يضحكون على خطوات سيره واهتزاز يده حتى مع عصاه التي تساعده على السير وقضاء حاجته، لم ينجح معهم في توابع خطواته (يا راجل يا عجوز مناخيرك أد الكوز)، لم يفلح في وقف السخرية عليه ولم يهتم احد من عشيرته به، الجميع تخلوا عنه، لا مفر له إلا الرحيل إلى خارج وطنه القذر النتن المخادع في كل الأحوال، لم يهتم بغلق باب الحجرة بالمزلاج، لا شيء يخاف عليه بعد جمع كل ما هو ثمين ونفيس وغال مع نقوده المختفية بين الوسائد وتحت التراب، خبأ كنزه

بين طيات ملابسه، حتى سرواله امتلأ بكثير من الخواتم الذهبية وأساور النساء، سيرحل ويفر في هدوء حتى مع خطواته المرتعشة البطيئة والمترددة، يعرف إلى أين يذهب ويرحل، هناك حبه وغرامه مع ابنة امرأته الراحلة وإن كانت مختفية، سيبهرها بالحُلي وأمواله الكثيرة كما كان يضحك عليها في حياته مع أمها، البحث عنها ليس بالسهل والهين هو يعرف مكان مستقرها في بيت الحبيب ودرجات سلمه المتهالكة أو في غرفة السمينة لا مكان آخر يسلكه للوصول إليها، اطمئن إلى مديته وجراب مزاجه من الحشيش والأفيون، خامره شعور باللذة وخطوات المتعة مع هذه المنشطات لما يريد من الحب وعودة أيام الصبا، معاشرتها ستعطيه القوة والصحة ورحيل مشاهد شيخوخته من جسده ومنخاره الذي بدا كمنقار الغراب وارتعاش شفتيه وهبوط لعابه المتكرر والمعيب، ستزول كل هذه النقائص عند مطارحة ابنة امرأته الراحلة في فراشها وإن كان فراش الحبيب أو فراش السمينة، معه ما يعمى صده عن فعل ما يريد، بريق الذهب الأصفر وسطوة النقود تفتح كل شيء من أشياء الدنيا، خبرة سنين عمره تعطيه الأمل في فعل ما يريد وأوله خطوات الجنس مع من عاشرها وأمتعها بلعاب حبه في بداية عمرها واشتعاله وحاجته إلى الشبع والمزيد من

الحب، انتبه إلى اقترابه من بيت العاشق سارق القلوب والأجساد ما عليه إلا الصعود على درجات السلم المتهالك وحرصه بسكون عصاته من الانتباه إليه

***

لم يشعر بالسعادة والشبع إلا الآن، كم تناول من أطعمة ومشروبات ورفاهية في أيامه الماضية، كم فتح فاه يتلقف الحلوى وقطع اللحم ويمتص أصابعها، السمينة أول من صعد معها درجات المتعة أعطته ببذخ لم تبخل عليه أبدا، هي الأولى أفاضت عليه بالصاحبة لم تعرف الفصام ولا الانفصال، كل ذكرياته تختف أمام هذه الساعة تناول الكثير من أطعمة مسمط الكوارع والكرشة والفشة والعصبان، جو المكان ومشاهدة أناس لم يتعود حتى على ملامح الوجوه، أهل كرموز هم أشباح تسير كفيلم صامت من أفلام شارلى شابن، حركات تغنى من ابلغ حديث، لم يبرح مسمط الزعبلاوي المشهور بين احياء الإسكندرية تأتى إليه السيارات الفارهة والكاروا وعربات الأجرة، خلطة عجيبة ممن يبحثون عن تناول وجبته المشهورة من المكرونة المطعمة بالفشة والكبدة والقلوب، يطمئن في الجلوس في انتظار كوب الشاي الأسود المحلى بقليل من السكر، كيسة نقوده بها ما يكفى لعدة أيام يصرف فيها كما

يشاء، الخاتم بفصه الماسي أغناه من البحث عن كيف يكمل يومه، ازاح فكرة البحث عن غرفة خالية بهذا المكان الساحر الصامت، إعجابه بأهل كرموز لم يغنيه من الهيام بالحب بالسمينة والصاحبة، هل يهم بالبحث عنهن وفى أي الأماكن يبدأ؟ غرفته أم سكن السمينة أم نجع العرب كما فعل بالماضي، أم يرجع إلى أهل الكهف ببطن الجبل بصعيد مصر، لا يقدر من العودة إلى إمام المسجد وفعلته المعيبة من التحرش بالمرأة الجميلة وكيف قاومت وتراجعت في اللحظات الأخيرة من فعل الحب، أشقاؤه لم يعلم أخبارهم منذ رحيل والداه من الدنيا، التفت إلى الميت الذاهب إلى مثواه الأخير بمقابر كرموز، هل يتابع ويندس بين مشيعي الجنازة والبحث عن مقابر أهله والدعاء لهم، رتابة ارتشاف كوب الشاي يفسح له الوقت للفكر وفعل ما هو قادم، أبطئ في خطواته مازال في تيه الرسو في أي الأمكنة، السمينة أم غرفته أم إلى أين؟ معه من النقود تعطيه حرية الاختيار، التفت إلى مساكن كرموز كم هي جميلة وساكنة بسكانها أصدقاء الصمت، لا يتحدثون إلا القليل من الكلام، المساكن القديمة تحتل الأمكنة، العمارات الخرسانية تعد على اليد الواحدة، لم يتردد هناك قطعة من ورق الكرتون على الحائط القديم، غرفة خالية الدور الرابع والأخير، لم يفكر في

التراجع عليه تكملة فكرته المجنونة بالسكن بكرموز مقره الجديد

***

اختل عقله وفقد توازنه وفقد كل شيء، كيف تم الضحك عليه من نسوة كان هو الأقوى بينهن في الشهور الماضية، يمتلك ابنة امرأته الراحلة وصاحبتها السمينة، بل كان سيد قومه في نجع العرب، رحل وذهب كل ما كان يتمتع به، صحته وشبابه وهيمنة زعامة قومه من غجر العرب، ابعد المعاناة والهروب من بني قومه وجمع كل ما يملك والوصول إلى سكن السمينة وابنة امرأته، يخدع وفى لحظات أوهام بأنه سيكون سيدهم وحبيبهم والعشيق الممتلئ بالأموال والحلي، الآن عليه أن يرضى بقدره وزوال كل ما كان يفعله في الماضي وما كان يحلم به في الأيام القادمة، عرفن أن يسقطوه على أم منخاره بين أفخاذ تغريه حتى يصلوا إلى ما وصلوا إليه من سرقة كل ما يملك، حب النساء ومتابعة المتعة هم كل حياته وسعادته، عرفن أن يدبروا في لحظات ويهربن بالأموال والحُلي وأخيرا أمله في أن يحيا بقية أيامه بينهن، لا يدرى اهو عقاب لما فعل من حرام من سرقات ونصب واغتصاب، ابنة امرأته تمكنت من خداعه وفتح شهيته للحب وكشف ما يريد أن

يتمتع به ويمتصه ويعصره بيده المرتعشة، وكيف تمكنت السمينة منه بشل كفيه من الدفاع، أسقطوه على الأرض وتقيد يديه وتكميم فمه، سرعة وخبرة ونجاح في السطو عليه، لم يتمنى الحياة بعد هذه اللحظات الحرجة والفاشلة، التفت إليهن وهم في طريق الرحيل من سكن العاشق، لم يرحموا ضعفه وإذلاله يراه في جحوظ نظراتهن إليه وابتسامة التشفي وهز الأرداف وتأرجح الصدور، طعنات الزوال تأتيه متلاحقة وشديدة الألم، لم تكف السمينة من حركاتها بل زادت بشيء لم يفهمه، أشارت إلى المعلقة على الحائط واليه، لم يفهم أهي إشارات أو أحاديث، زادت ابنة امرأته بعد فرشحة فخذيها بالهمس إليها، أيتها الماكرة الخبيثة تركناه لك تفعلي به ما تشائين، ارتعشت اطرافه الحجرة كلها تدور به تشارك المرآة في تأرجحها على الحائط

***

لم تمل من مشاهدة كل ما يجرى من حولها، استمتاع بجميع ما تسمع، تنتشى مع كل شهقة حب ولذة، تسطو بدون رحمة أو استئذان، تبجح واستعلاء وعلى مرمى بصر الجميع، هي سيدة الأمكنة تحتل كل الحوائط ابتداء من دورة المياه حتى إلى الحجرات المغلقة السرية من غرف النوم والظلام، تتحدى

كل شيء برغبتهم وليس برغبتها، لا حيلة لها في الابتعاد وترك المشاهدة أو الاستماع، لا تنام ولا تستريح ولا تمل تستقبل وتسجل ولا وقت للراحة أو الابتعاد عن ما حولها، مازال الأعرابي ماثلا أمامها مقيد اليدين مكمم حتى من اخذ أنفاسه وحشرجة منخارة، هو في طريق الزوال ولا تقدر على فعل أي شيء، هكذا حالها وحالتها الآن اشد وأصعب في تحمل مشهد العجوز، رحيل السمينة والصاحبة وحمل الأمتعة وترك الضحية بين يديها، ما أصعب العجز عن فعل أي شيء من إنقاذ العجوز المكوم في ركن الحجرة كجوال القمح الذي عفا عليه الزمن، مرت أيام ولم يحضر أو يظهر إليها محب، لم تسمع حتى رنات صعوده على درجات سلمه المتهالك، هي تعرفها جيدًا وتميزها عن باقي الخطوات حتى هذا العجوز تنصت إلى خطواته في زيارته الأولى، فرق كبير بين الماضي والحاضر برنات عصاته على درجات السلم وحشرجة أنفاسه، لم تشعر بضآلتها إلا في هذه اللحظات الحزينة والحرجة في آن، تتمنى أن تدور بها حوائط الحجرة لتغفل قليلا عنه ولا ترى شيء إلا الحائط المقابل الخالِ من كل شيء، لا تقدر من الفكاك من الحبل المعلق في رقبتها معدة للشنق ولكن أين ومتى تزال أو تفك وترحل إلى مكان آخر أو إلى حوانيت الروبابكيا

وصهر ويا حبذا إلى الخلق من جديد قارورة أو آنية توضع بها أشهى الفواكه وأحلاها، عادت إلى أحزانها من جديد مع العجوز وكيف تنقذه من مآسيه وحالته المخزية، انتبهت إلى خطوات قيامه والتوجه نحوها، كيف لم يفعل هذا إلا الآن، كان في إمكانه أن يفعلها اقدام غير مقيدة يداه وفمه فقط، كيف لم يفعلها إلا الآن؟! أرادت أن ترقص رقصة وداعه للغرفة والخروج إلى الحرية والهواء الطلق وطلب المساعدة في تكملة حريته من الخارج، لم تسعد بخطواته نحوها ينظر إليها، نظرات فهمتها وفكت شفرتها ولا سبيل إليها من الفرار من رأسه تحطم قطعة منها من جسدها المفكك أصلًا من أيام الماضي مع الحبيب وقذفه عصاته وغليونه وتحطيمها وتفرقها إلى قطع صغيرة تحاول أن تحافظ عليها ولا تكون نهايتها بهذه الحالة المرعبة، خطوات الفقد لجسدها الواحدة تلو الأخرى، تتمنى أن تسمعه ويعرف كم هي عطوفة معه متعاونة تريد له الخلاص والحرية وكذلك الانتقام من الصاحبة والحبيبة والحبيب، امسك بقطعتها الحانية المدببة كالمدية الحامية وبرك على الأرض يحاول الخلاص من الأربطة، دار بها الحائط هي تقلب رأسا على عقب، لا تريد هذه المهانة وهو يضعها بين أطراف أقدامه يهتك ويقطع، ما عليها إلا الانتظار ما هي

الخطوة القادمة، نجح في الفكاك والحرية، ركلها بقدمه في زواية الحجرة، التفت إليها أشاح عنها الغبار والأتربة، لم يهتم بلم شمل قطعتها المنهوبة والمنكوبة وحالتها المزرية، نظر إلى وجهه عليها فاضت ابتسامته بكثير من الفرحة، أما هي كانت تئِن من فقد قطعتها في أركان الحجرة

***

بحث في أركان الحجرة المغلقة الغائبة، لم يترك أي أشياء تدل عليه حتى قطعة الصابون في دورة المياه لم يتركها، ما عليه الآن إلا وداع كرموز الصامتة بأهلها، أشباح سائرون بخطوات مهتزة لا يرى الوجه من القفا، لا تعرف أهم قادمون أم ذاهبون أم إلى المقابر راحلون، خطوات جنائزية ورؤوس تكاد أن تلامس الأرض، لم يعجبه نساؤهم لا يعرفون الغمز واللمز ورنات الضحكات التي تهز القلوب، يشتاق إلى الحياة كما أحبها وعاشها ومضى فيها بخطوات حبه للسمينة والصاحبة حتى بائعة الجبن برشيد يشتاق إليها، لا سبيل إلى الركون بين الأشباح ومساكنهم المتواضعة الآيلة للسقوط، عليه الفرار مضى من العمر الكثير لا يضمن أن لا يرحل من الشباب والصبا إلى الشيخوخة وسنوات العمر الباقية، أعجب بخطواته الصامتة على درجات السلم والمغادرة في هذا الوقت

من الليل، الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل، اطمئن إلى كيسة نقوده مازالت لم تجف، أخيرا ابتعد عن سكنه لم يمكث فيه إلا بضعة أيام، التفت إلى المقاهي المغلقة والخاوية حتى من الأضواء، فرار دون أي فكر إلى أين يذهب وفى هذا الوقت من الليل، لا سبيل له من المواصلات الحكومية، هي تنهى عملها في هذا الوقت، المواصلات الخاصة غالية الثمن تعرف كيف تستغل الراكب في سبيل الوصول والعودة إلى مستقره ومسكنه، عليه السير والخروج من حي كرموز الميت في كل شيء، لن يسرع في خطواته عليه التروي في المسير حتى لا ينتبه إليه أفراد الشرطة الليلية وتثار الشكوك حوله، لن يتوقف سيواصل في الرحيل ولكن إلى أين؟ مسكنه أم مسكن السمينة أو الذهاب إلى ميدان المساجد، هناك على درجات سلم مسجد المرسى أبو العباس يمكنه أن يستريح ويغمض عينيه في راحة واطمئنان، الجميع يعرفونه هم نائمون هناك سيشاركهم في المبيت حتى يأتِ الصباح المختفي والغائب، اقترب من سوق محطة مصر وها هي مقهى المشايخ لم تغلق بعد، مازالت تئِن بشخير قارئ المآتم، عليه الراحة ولا داع إلى الذهاب إلى ساحة المساجد، هنا النوم متاح كما هناك، ما عليه إلا أن يندس في مكان مظلم حتى لا يراه النادل ويعرف

ملامحه، يتمنى أن يكون هو أيضًا نائم كما ينام بقية الزبائن، ذهبت الراحة ورحل النوم بقدوم النادل هوهو الذي يعرفه من الماضي القريب مع السمينة وشيخها الأعمى، لم يعجبه فرحة النادل به، أطرافه كلها ترقص تزغرد وتغنى، السمينة كم جاءت إلينا تسأل عنك وتعرف أخبارك، كان يتمنى أن يحتضنه في صدره زميلتها الصاحبة معها تشاركها في السؤال عنك، لم يعرف كيف يشرح للنادل غيابه وسؤالهن عليه، مد يده ببعض النقود واخبره عليه الراحة حتى يأتِ الصباح

***

الشمس في طريق الاختفاء، لم تمل من النظر عبر النافذة، كم تشبه برج الجزيرة ترى كل ما يحيط بها، سكن جديد وجيران أغراب لا تعرفهم ولا تريد أن تعرف عنهم شيئا، توصية الصاحبة لها بعدم الاختلاط بتلك الوجوه، هي زائفة تغرى ولا تفيد في الاستفادة لن تحصل على معرفة أسرار هؤلاء، هؤلاء تغلق عليهم مساكنهم لا يظهرون إلا في أوقات قليلة، يتأففون من الاختلاط بها أو الصاحبة، الصاحبة تفهم هؤلاء أحسن منها وأكثر خبرة، لم يغنى السكن الجديد في الحنين إلى مسكنها أو مسكن الحبيب بدرجات سلمه المتهالك، هنا أنوار تشع في جميع الأركان بداية من أول درجات السلم

حتى باب الشقة، قتامة مسكنها وأبوابه الخشبية القديمة المتهالكة، تعطيها الكثير من رائحة الذكريات الغائبة والمختفية، لم تقدر من صد ارتعاش جسدها الصاحبة لم تأتى بعد، سيل من الشكوك يدفعها بقسوة إلى خطوت تتمنى أن لا تفعلها، البحث في خزانة الصاحبة هي خير دليل على مقاومة هاجس فرارها، ستخطو إلى الخزانة بها سيفصل في الأمر، الصاحبة مرت ساعات ولم ترجع بعد، هل فرت بغير رجعة والى أين؟ المحب لا يعرف له مكان ولا طريق، هل التقت بحبيب آخر يغنِها من عذاب الفراق، أم الحالة أصبحت لا تطاق من تحمل غياب الحب؟ الآن سيظهر الليل من النهار وتوضح الأمور، جسدها زاد من الهز والارتعاش لماذا وهى الآن في الطريق لمعرفة ماذا حل بالصاحبة، هاجس خزانة الحُلي والأموال يفزعها، تمر من أمامها، هل تتوقف ومعرفة ماذا حل بها هي الأخرى؟ وكيف ستعرف ومفتاح الخزانة دائمًا بصدر الصاحبة لم تتخلى عنه حتى في الاستحمام أه من ليلة ثقيلة عفنة توحِ باقتراب الخراب، سبل كثيرة لفتحها والاطمئنان بأن الصاحبة لم تخدعها وتهرب، فتحها معيب ولكن لن يكون نهاية الدنيا، كلمتان وأحضان وقبلات تنهى عملها المشين، الصاحبة طيبة القلب كم من المرات تتخلى عن محب لها، بل وصل بها

الأمر أن تتمتع بمشاهدة خطوات المتعة عيناها تفضحها عطشى راغبة أن تكون هي بدلا منها، قلبها الطيب سيعفو عنها لن تمر إلا دقائق وينتهِ الخصام والعتاب، التفتت خلفها كيف لم تشعر بهم، الأعرابي زوج الأم يسحبها من شعرها جحوظ نظراتها تعطى الكثير من الحروف والكلمات، لم تهتز من قبضته مازالت قوية لم تهزم من مضى العمر، الصاحبة بين يديه كخرقة بالية تعد للحرق، لم تهتز تعرف مفاتيح وفك شفرات الرجل الكهل، عرت من ساقيها تمادت في العرى، ركع كما ركع من أنقذتها من بين يديه و قضبان البوابة الحديدي الأسود بل زاد في التبتل والخشوع والخنوع في حبه لفتات من الحب وإن كان دون لمس!

***

تغريد العصافير وصوت الضجيج في ساعات الصباح الأولى ترغمه على أن ينهض من الفراش المتواضع من المقاعد الخشبية وما تحوى من حشرات، جسده يكفى عذابه أثناء ساعات الليل من اللدغ وقرص البراغيث، كم هي جبانة لا تظهر ولا يمل عملها في الليل، هي تختفِ في الصباح قانعة بما امتصت من الدماء ومتعة القرص واللسع، التفت إلى النادل يبتسم له لم يهتم كفى ما أعطاه بالليل من نقود، لم يطلب أي

مشروبات سينحسب إلى الخارج في الهواء الطلق، سيعدو في الطرقات والحواري حتى يعثر على بغيته، السمينة والصاحبة كم يشتاق إلى رشفة حب في بداية يومه، من أين يبدأ؟ امن مسكنه ودرجات سلمه المتهالكة والمختفية والغائبة؟ أم الذهاب إلى بيت السمينة أم يحوم حول نجع العرب؟ لم يهتم بخاطرة الذهاب إلى بيت العائلة كم مضى عليها من الاختفاء، سنوات طوال لم تمنحه تأشيرة مرور إليه أو لقاء أشقاؤه واخواته، راجع حافظة نقوده مازالت عامرة بالنقود هي تدفعه بثقة في تكملة مسيرة البحث لن يتراجع سيخطو إلى أول خطوة شراء ما يلزمه من ملابس كفى من الم الذكريات مع الملابس الرثة المكتئبة سوداء الحظ عرجاء في كل ما يريد فعله أو استكماله من أحواله المختفية والغائبة، التفتت إلى محلات سعد زغلول وما تعرض من كل من يحبه ويتمناه عليه التراجع والاتجاه إلى محلات أمثاله من المساكين والفقراء سوق محطة مصر هناك شارع ابن الخطاب بمحلاته المتواضعة في الأسعار والملابس المألوفة لمن مثله، لم يستمر في مهمته من الشراء، رائحته تزكم الأنف من العرق وعفانة النوم والأتربة في جميع أطرافه وجسده، عليه الاستحمام ولكن أين؟ لا سبيل إلا التوجه إلى مسجد النبي دانيال هناك متاح للفقراء أمثاله أن تستحم في

دورات المياه المتواضعة لا يهم ما عليه إلا الصبر مع خرطوم المياه وإزالة كل العرق والعفن وتحمل رائحة دورات المياه العفنة والنتنة والغائبة، لم يتأفف من قطعة صابون الغسيل الملقاة على الأرض سينظفها قبل تنظيف نفسه لا ضير من تحمل كل هذا ثم التوجه لشراء ما يلزم من ملابس جديدة وزاهية تطفو به إلى استكمال مهمته من البحث عن السمينة والصاحبة والرحيل من مشاهد التيه والضياع والحرمان الملتصقة به والمتشعبة والمراقبة من الماكرة والخبيثة والإنصات ليل نهار عليه في فراشه الغائب والمختفي

***

التفتت إلى سوق ساعة كرموز أرداف النساء واللحم الأبيض والأسود والأحمر تبهر كحالها دائمًا في ساعات النهار، لم تمل من البحث عن الحبيب الغائب صاحب القلب القاسِ في جميع أحواله من بداية خطواته، النفور من الزواج والهروب من المولود القادم والاختفاء تستمع إلى الصاحبة وأنينها من غياب الحب تشكو لها وهى التي تحتاج للشكوى مثلها، العجوز الكهل الأعرابي رحلت عنه كل خطوات المتعة لم يبقى إلا نظراته وجحوظ عينيه إليهن في كل خطوات تبديل الملابس من بداية خطوات الخلع واللبس، كم تثار مع الصاحبة

إلى نظراته إليهن تلهب وتشعل ولا يجدن غير الاحتراق وعذاب الاشتياق والتخبط والتقلب في فراش لا يجد من يشبعه من الاهتزاز والمتعة، الآن نهاية خطواته وحياته ورحيل نظراته إليهن، اقتربت من حانوت بيع أكفان الموتى كسوة الكهل في آخر أيامه، غسلته مع وداع من كان يشعل انطفأ وخلصت أنفاسه وجحوظ نظراته، عليها الإسراع والعودة فالصاحبة ترتعش منه ميت و حيي يتنفس، لا تنسى من عذاب متعته المحرمة، كم هدأتها لن تغيب كثيرا ستأتي مسرعة، لم تطمئن ترتعش وهى تنظر إليه جثة هامدة لا حيلة ولا حركة، تركتها معه بعد مشاق القناعة بموته وسكون جسده الأبدي، ستعود إليها وتكملة رحيل زوج الأم الأعرابي الزاني بها وبأمها، ستقذفه إلى مثواه الأخير وإلقاء التراب تتمنى ترابا خاصا بهذا الشقي ذئب النساء، كيف تفعله لا حيلة لها إلا أن تشاهد خطوات دفنه مع الدعاء عليه بنار جهنم بل واللقاء بأم الصاحبة عسى أن تنال منه وتثأر لها ولابنتها الزاني بهن في آن

***

لا حيلة لها في التنقل بين الغرف هي تنتظر من يأتي إليها، تسجل وتنصت وتتمتع في ساعات الليل والنهار، الآن لا

صوت ولا محب والسمينة والصاحبة، غياب قاتل ومميت وحسرة على ضياع متعة خطوات الشهوة، أدمنت الآهات والتألم وتقلب الأوجاع بين الفرش، لا سبيل لها في عمل أي شيء يغنيها من هذا الضياع والغياب والفقد، لا تستحِ من حالتها والتمزق لجسدها اللامع والمتوهج دائمًا المترقب لكل ما هو جديد وممتع وجذاب ومختلف، تنظر بحسرة الألم والفراق والهزيمة، مازالت تحن إلى قطعتها الملقاة في ركن الغرفة، هل يأتي من يرممها في جسدها ويجمع الشمل، الأعرابي الكهل العجوز عادو به إليها ولكن جثة هامدة قبل أن يرد الجميل بقطعتها المدببة المنقذة له من القيد والفكاك والهرب، كم رقصت واهتزت تترنح من اليمين إلى الشمال والعجوز بين يدي السمينة تغسله لم تستحِ من قطع السمينة لعصب العجوز كانت تتمنى متابعتها في الذهاب إلى الغرفة الأخرى، ماذا فعلت به لماذا قطعته من جذوره؟! عليها الانتظار عسى أن تمر الساعات والليالي وتأتى السمينة والصاحبة ومعرفة ماذا تم لعصب الأعرابي الكهل العجوز والميت؟ لن تستدعى ذكرياتها معهم عليها الانتظار وإن طال بها المقام على الحائط، لم تمل ولن تنهزم ليس هناك من الفرص أن يسخر منها محب وحبيباته هي دائمًا منتصرة ساخرة، زادت من نشوة الانتصار

صوت أقدام تصعد إليها على درجات السلم المتهالكة تنصت وتتمنى اللقاء، عليها أن تميز خطوات من؟ أهو محب أم السمينة أم الصاحبة؟

***

التفتت كثيرا تتابع وتبحث عن بغيتها بين حارات وشوارع أبو سليمان، هنا يسكن المستشار صاحب حل كل المشاكل، أعماله السحرية تتحدث عنها الألسنة وتشير إليه الأصابع بقوته الخارقة في عمل المستحيل، وهى الآن تبحث عن المستحيل، أين يختفي مُعذِب القلوب والأبدان ومشعل الحب، تخلت عن الصاحبة في هذه المهمة لا تعرف هل تفعلها من باب الأنانية والحصول على المراد من عودة الحبيب؟ عضو الكهل الزاني الأعرابي بدأ في التعفن وضعه داخل المبرد وبين قطع الثلج لم تفعل شيئا لحمايته هو راحل إلى الزوال مثل صاحبه بين المقابر، تخطو في حياء لا تقدر على السؤال أين يقطن وفى أي اتجاه تسير، اعتمادها على وصف نادل مقهى أبوها الشيخ الأعمى تحسبه سهل المنال واللقاء ونجاح مهمتها، هو يعرف علاقتها مع محب وكم من المشاق تتحملها في سبيل الوصول إليه، يعاونها كما كان حالها معه في المقهى وإعداد طلبات الزبائن، دائمًا ينظر إليها، نظراته وجحوظ عينيه تفهمها جيدًا،

وهذا محال أفصحت له بأسرارها مع الحبيب ولا تقدر من الرحيل من حبه والاستغناء عنه، لم يجد سبيل في طرق باب جسدها والتمتع هو الآخر، كم أفصح لها من تلميحات من الزواج بها والاستقرار بدلا من كل هذا العذاب، لم يقدر في إكمال فكرته هو رجل مثل أي الرجال ومنهم من تحبه وتسعى إلى معرفة مقره، لم يفهم أن قلب المرأة إذا عشق يهدم الدنيا بما فيها على رؤوس أهلها، عرفت أن ترحل من هدفه وبغيته في الحصول عليها، خر راكعا ليرشدها عن من يأتي إليها بالحبيب، كم حزنت عليه وهو يتلو عليها عنوان المستشار صاحب الأعمال العلوية والسفلية في مهمة عودة حبها، لم تشعر بحرارة شمس الظهيرة وألم قدمها من كثرة البحث ومازالت لم تعرف طريقه وسكنه، ارتعشت أوصالها الخاطر الجنوني يهجم عليها يسيطر بلا رحمة، هل ضللها النادل وأراد أن تفشل والعودة إليه والركوع تحت أقدامه؟! محال هي تثق به وتعرف مدى أصالة العشرة لها وللشيخ الأعمى الراحل، عليها الصبر وتكملة البحث، جاءت إليها البشرى السعيدة، محلات اللحم المثلج وحواشي البهائم من الكرشة والفشة والقلوب، هي الواجهة له في إخفاء ما يعمل من أعمال تدر عليه بكل ما هو ثمين من النقود والهدايا تأتى إليه، توضع تحت أقدامه،

أخرجت لفافة العضو التي مازالت باردة، حان وقت خطوات الأمل ومقابلة المستشار والوصول إلى حبيبها الفار والمختفي والغائب

***

جلست في صمت أمام الصاحبة لم تقوى عن الإجابة عن سيل التساؤلات، عاجزة حتى من النظر إليها، لا تراها كما تراها دائمًا، أم من دمع يحجبها ولا ترى إلا بصيص من الملامح، أم من شرر وجحوظ عين الصاحبة لما بدر منها من المهمة الخائبة والخاسرة، مقابلة الدجال المستشار صاحب الأعمال السفلية والعلوية، كم كان جبانا خائفا يستوى مع الأرض بين أقدامه، لم تفلح في الرد للمحقق، ماذا تفعلين معه وما هذا العضو العفن ومن أين أتيت به؟! بحثت في إجابات الدنيا كلها عن إجابة ترضى المحقق ويأخذ بها، لم تجدي السبل في قناعته من الإجابات غير أن تسرد له الحقيقة كاملة، يستحى من النظر إليها ومع ما تتلو عليه من قسوة العذاب بفقدان الحبيب ومدى ألم جسدها من جرعات الارتواء وحاجتها إليه، كلمات ساخنة تمادت في أن يسمعها المحقق وينصت إليها، لا سبيل في أن تعرى جسدها الأبيض الغض وسفينتها السوداء في خصرها، كاتب المحقق ينصت هو الآخر، لا تقدر من

الصياح والصراخ له أن ينحى بعيدا في آخر الدنيا، هو وحده تريده وتنفرد به ويرى مدى الحاجة إلى الحبيب وسيل العاطفة وطريقه بين ساقيها، وعذاب جسدها وصدرها الحنون وهياج شفتاها لثغر الحبيب، نجحت في إذعان المحقق لها وكم كادت ترقص من الفرح بكلماته الحانية على الأوراق (يخلى سبيلها)، التفتت إلى الصاحبة تبرك على الأرض تقطع ما يسترها، لم تقدر من أن تتوقف عن كشف جميع جسدها، لم تنسى شيء يستر جسدها، تدور مع الكلمات وبح صوتها من النداء أن يصل إلى أبواب الحبيب، لم تفلح في إنهاء رخا الحب وعذاب الاشتياق ولذة الشهوة، هي والصاحبة جسد واحد ومتعة واحدة وعذاب مكتمل، كم تتمنى الانتهاء من سيل الأسئلة لماذا ذهبت وحدك؟ لما لم تشركيني في البحث وإيجاد الحبيب؟! ما جنايتي معك الم نقتسم الفراش ونرتشف الحب ونزيد سويا من المتعة، كم من الصبر في البحث عنه وإيجاده والتضحية بما في أحشاءنا من ثمرات المتعة، يفر ثم يأتي ثم يفر ولا نجد له سبيلا، كم ركعنا تحت أقدامه لم نبخل عليه من القرابين من الذهب والفضة، يفترسنا ويتمتع ونحن نتأوه معه في الفراش وفى الغياب سواء، نحن سواء في عذاب الفراق والاشتياق إلى حبه والعودة إلينا، ترحلين إلى صاحب الأعمال السفلية

والعلوية وخداعة لكل من يحتاج، هل تناسيت نحن الأعراب اشد حبكة وأعظم في الضحك على الناس من نوشوش القواقع ونفرد المناديل ونقرأ البخت ونعمل الأعمال اشد حبكة وأعظم تأثير بين الناس، نحن الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأعلى من دجالك وأعماله الخائبة، ما زلت تجهلين من نحن ومن أنا، أنا من زنيت مع زوج من ولدتني وأنا الذي خدعته وأخذت أمواله وحشرته في ذل الشهوة وخسارة الدنيا والآخرة انت كم شاركت في كل أعمالي وأوساخي، تريدين، امتلاكه وحدك وتركي في تيه فقدك وفقده، لن تقدري من الفرار منى والغياب عنى، والفوز بالحب، لم تقدر السمينة من الصبر عليها أكثر من هذا ارتمت في صدرها تسترها من الملعونة الصامتة المراقبة تتمنى المزيد من كشف والتعرية، أشارت إليها:

الآن علمت وعرفت لماذا أخذت العضو وحافظت عليه، اهدئي وارحمينا من النظر إلينا والتصنت والتشفي عن حالنا، سأزيلك من جدران الغرف سأقذف بك من أعلى القمم، التفتت إليها تتراقص بل كأن صوتها يعلو في كل الغرف

***

السأم يحتويها لا تجد من يعطف عليها والابتعاد عن أحوال بني آدم، هي مأمورة ومن من؟ قطعتها المكسورة مازالت

مهانة في سبيل الاختفاء، الأتربة والغبار تعميها من النظر حتى إلى باقي جسدها المعلق على الحائط، تمرح بين كل الثنايا وتحمل في اكف الجميلات والدميمات، هي في رضا من أحوالها إلا مع هؤلاء، فقدت كل أحاسيس السعادة والتطفل والتصنت وتسجيل كل ما تراه، لماذا كان مصيرها وحظها مع أناس لا تتمنى أن تكون بين أيديهم وعلى حواطهم؟! هناك بين اكف الجميلات تشهق من احمر الشفاه ومتعة حواجب النساء وعيون الغزلان واحمرار الخدود التفاحية والزيتونية والأبيض والخمري والأصفر، حتى في الخلاء هي معهم مجبرة مأمورة بأيديهم تفضح وتشاهد وتشم ولا تستحِ وتغض بصرها، هي متعة أم عذاب؟! كما تعذب الآن بينهم، هي معهم في كل الأمكنة هناك وهنا، لم تخلص من محب وعراكه معها والفوز بتفرقها وتكسيرها، أحبت الكثير من خطوات الجنس وسماع التأوهات وصراخ اللذة، ومتعة اللحم بكل أحجامه، سلطانة ملكة تملك الجميع ولا احد يقدر من الاستغناء عنها، أحبت السمينة هناك وكم رقصت وترنحت من خطوات الزنا مع زوج الأم مع الصاحبة وفى أحضان محب، هنا تريد أن تفر لا تتمنى الفشل وإن كان لمن مزقها وأهانها، كم ذلها بخلعها من على الجدران حتى في مقهى رشيد حطم أمالها في المتعة مع

مشروبات الزبائن ورنين النرد وورق اللعب ورائحة الدخان وأنفاس النرجيلة وصوت كركرة المياه، فاق إبليس في السيطرة والهيمنة، النادل لا يستطيع برفع الرأس والاعتراض وزبائن نائمة غافلة عما يدور حولها من أحوال حتى بكلمة اعتراض عن محوها من الحائط ونفيها من الحياة!! هرب من الحب فر منها ومنهن دائمًا جبان يفر ويهرب ويختفِ، لماذا الآن يختفي كل هذه المدة؟! ألم يحن إلى السمينة والصاحبة ومنازلتها في التحدي، كسرها لم يتقدم خطوة أكثر منها، كم تتمنى أن يحضر إليهن كفى من عذاب الحرمان والتيه في البحث عنه وإيجاده ومحاصرته بين الفرش، انتبهت إلى السمينة تنظر إليها تشير بأصابعها وتأمرها بالصمت والسكوت والابتعاد عن زم الحبيب

***

ينظر إليه كم من الديدان تأكل جسده وتفضح عظامه وتنهى شعيرات رأسه، لم يجد عمامته صولجانه وتاج رأسه في نجع العرب، يعجب لحاله يطير ويمرح فوق جسده الذي في طريقه للزوال في التراب وبين عظام الموتى أمثاله، ظلمة القبر وضيق المكان لم تغنيه من النظر إلى من حوله من عظام، هي ليست لأحد يعرفه ولا من قريب ولا من بعيد، لم يعجبه أن

يدفن في قبور الصدقة، قبور الأعراب مبعثرة في بداية المدافن وفى أوسطها حتى في آخرها توجد لهم مقابر فسيحة منمقة عالية تليق بمكانته وبجسده وعلوه بين أهله وعشيرته في نجع العرب، لن يتقاعس في البحث عن كل ما يريده، يسبح في الهواء خفيف سهل لا أقدام تحمله ولا يرتدى من الملابس شيئا، لا يدرى اهو يخترق الأنوار أم هي تخترقه؟! لا يهم عليه البحث والطواف في المقابر حريته لا يعلم من أين حلت عليه وهو ميت تقرب إليه المسافات سيجد ضالته هولا يريد قرب الجوار منها، شيء آخر يريده أين ابنتها الجميلة الساحرة، لن تخذله هو دائمًا السيد ولا سبيل لها من الاعتراض أو مخالفة أوامره، كم كان سهل العثور عليها، محشورة بين مقابر عشيرته الأعراب، التفت إلى عظامها، هكذا نومتها دائمًا القرفصاء، ركبتيها في صدرها لا وجود لنهديها ولا أي شيء من اللحم هي مثله ترقد كحاله وعظامه المكومة، لم يعثر عليها ومعرفة مكان ابنتها، يا لها من ماكرة أتهرب منه أم مختفية تتسكع بين القبور تبحث عنه أم تبحث عن منى عينه ابنتها الغائبة؟ ما عليه إلا البحث في مكان آخر، هناك سيرحل إليه ويطوف بين الحارات والشوارع لن يترك أي مكان حتى يعثر عليهم جميعا، المحب والسمينة وابنة امرأته الزاني بها

***

التفت حوله لا عصا بيمينه وخطواته البطيئة وعلو أنفاسه وحشرجة صوته، هو لا وزن ولا صوت كل ندبات عمرة وشيخوخته لا وجود لها، يمرح ويطير ويخترق الحواط والأبواب، حتى درجات السلم المتهالكة لا يخاف منها وسقوطه وارتطامه بالأدوار السفلى لبيت محب، نظر إلى الوسائد ملقاة على الأرض لم تتحرك أو تنقل من مكانها، رباط اسره مازال ملقى في زاوية الحجرة بجانب قطعة المرآة المحطمة، كم ساعدته في الفك والفرار، حتى دلو غسله لم يبرح مكانه، لا وجود للسمينة أو ابنة امرأته أو الحبيب، ظلمة المكان كم تشبه قبره حتى رائحة الموت تحوم في كل الزوايا، ألا يكفى قبره وسكنه الأبدي! فشل بالضغط على مفتاح الإنارة، لا يعرف كيف تأتى حركاته ولمسه للأشياء، لا يجد تفسير لما يجرى له أو يفعله، قوى خارقة تحركه، طاقة سحرية تلبى كل ما يريد وما يفعل، وعليه عمل المزيد منها، هو لا يشبع من كل شيء حتى في لحظاته السرمدية وبين غرف السمينة، انتبه إليها هي مازالت على حالها، مستقرة على جدار غرفة الحب والنشوة، هل يستطيع بقواه السحرية والسرمدية في أن يسألها أين جيرانك ومن كنت تتجسسين عليهم وتنصتي لهم وتراقبي

خطواتهم، اقترب منها يشعر بقوته وسحره ومعجزة أن يجد الإجابة حاضرة، لن تصمت أمامه ستحدثه بكل ما جرى من حولها، سيبدأ بتلاوة الأسئلة، أين السمينة أين المحب أين حبيبته ابنة امرأته، لن ينتظر كثير ستأتي الإجابة هكذا يرى كل شيء تحت أمرته وسيطرته، خارت قوته السرمدية إمام إصرارها على التحدي والسكوت وعدم الرد، لم يقدر من الاقتراب أكثر من هذه الخطوات، ليس له وجود بها، لا شيء هو نكرة لا يرى منه أي شيء من ملامحه، هو غيبي كحاله في الطواف بين الشوارع والحارات وبين الناس، تمنى أن تجيب سؤاله الا تسمعه لا يهم من مراقبته أو معرفته بين ثنايا زجاجها المحطم يهتم بأمر واحد أين من يبحث عنهم ويتمنى أن يلقاهم والجلوس بينهم

***

لم تصبر أكثر من ذلك ولن تحزن على جسدها المكوم بين التراب ونومتها القرفصاء وزوال جسدها، كيف صبغ بالسواد وتلك العظام البارزة بين نهديها، لا حيلة لها في تفسير أي شيء، هي تنظر وتتأمل حالها بين عظام الموتى، فشلت في معرفة لماذا أنت بين التراب؟! وأنا أسبح في فضاء لم أراه من قبل، لا تجد إجابات من جسدها المكوم ورائحته العفنة، لم

تصبر ما عليها إلا الرحيل والطواف ومعرفة المزيد من نومتها بين القبور وعظام الموتى، هي تعرفهم لا تخطئ في أسماءهم، صبحة وخضرة وأمونة جميلات نجع العرب، كم تنافسوا وتآمروا في الفوز بزوجها شيخ العرب، خذلهم ولم يجب حتى بإشارة من إصبعه، كم هو جبان خائن لا ضمير له ولا دين ولا ملة، ابنتها شغلته عنهن جميعا حتى هي رحلت عنها لتسكن في أحضانه، كسبت رهان الإعجاب والحب والمتعة، لم تفرق بينهن وبين من ولدتها وسهرت عليها، خسرت كل أمانيها في أن تسعد مع ابنتها وزوجها، لم تكن تعرف أن زوج الأم زير نساء لا يعرف الشبع والتوقف حتى عن ابنتها والنيل منها، لن تطيل النظر إلى جسدها وما حوله من عظام الموت سترحل وتطوف وتبحث عن الجبان الخائن، رائحته ليست بعيدة عنها تشمها وتشعر بها، أهو مثلها مكوم بين الموتى؟ أم يصول ويجول كعادته في المتعة من الدنيا بطولها وعرضها، لن تمل من البحث والعثور عليه والاطمئنان على ابنتها الخائنة سارقة شيخ العرب فقد حان وقت السماح لا عتاب ولا جزاء هي لها العذر في كل ما فعلت لم تتعلم منها كيف تحيا بين هؤلاء الذئاب، سقطت في الرزيلة من أول خطوة ومع من!! زوج أمها الأعرابي المتصابي العاشق لكل ما هو حرام، ستبحث

عنه وتطوف بكل الأمكنة حتى بين هذه القبور ستبحث عنه ستجده حيا أو ميتا، لن تتركه حتى تثأر منه ولابنتها الزاني بها، التفتت إلى القبور المتناثرة من حولها،تشم رائحته تعرفها كما تعرف اسمها، عرقه وهو بين أحضانها حتى لعابه كم رائحته تكرهها وتنفر منها، لم تتوقف في البحث عنه والنيل منه والانتقام، لم تيأس من البحث بين القبور وعظام الموتى، كم بعدت عن عشيرة الأعراب واقتراب الفشل في العثور عليه، انتبهت إلى العظام بين ظلمة القبر، ها هو شاربه لم يرحل بعد آثار العراك تملأ رأسه، لم تفزع هو مثلها في سبيل الزوال والاختفاء بين العظام وتراب الموتى، عليها البحث هو الآن مثلها في مكان آخر، هناك في نجع العرب لن تتراجع ولن تهدأ حتى تحصل عليه وما عليها إلا أن تغادر القبور وعظامها التي في طريقها للزوال

***

أغلقت النوافذ بإحكام، لا تريد من أحد أن يسمع أو ينصت، أخيرا عادت إلى مسكنها القديم، تركت الصاحبة في سكنها الجديد، تتمنى أن تخلو بحالها، رائحة أباها الشيخ الأعمى مازالت حاضرة، تشمها وتحس بخطواته بين الغرف، مازالت بصمات عرقه عالقة بين الجدران، تستحي أن تلعقها بلسانها،

رائحة اللحم والأرز والثوم متواجدة لم ترحل كما رحل هو، دلفت إلى غرفته غصبا عنها شيء يحركها يأمرها وما عليها إلا الطاعة، رائحته تقترب منها تحسها، عمامته وجلبابه وجبته، خلعت كل ما عليها حتى الأسود المختفي بين طيات جسدها المعذب بغياب الحبيب، أكملت طاقم أباها الشيخ فوق جسدها، التفتت إليها مازالت تراقبها، لن تهتم ستجلس في خشوع وتلاوة بعض صفحات أدعية أباها، تحفظها عن ظهر قلب ولكن تتمنى المزيد من رائحة شيخها، لم تشعر بعد توسلها بالاقتراب منه أو صوت حشرجة أنفاسه، محاولات باءت بالفشل عليها الإسراع بالعودة إلى ردائها، لم تنسى النظر أليها، مازالت تراقب خطوات فشلها، سترحل قبل أن يفلت صبرها وتحطمها وتزيلها من على الحائط، اقتربت منها لم تقدر على الوقوف أمام ارتعاش جسدها يأمرها أن تجلس القرفصاء، أنفاسه تقترب رائحة دخان غليونه ينعشها، جسدها يرحل إلى الارتخاء لا تقوى على صد النوم والرحيل إليه

***

الشوارع مازالت فارغة من المارة، لم تنتظر حتى بزوغ شمس النهار، عليها الإسراع إلى بغيتها وقرة عينها عسى أن تجدها، السمينة يومان في غياب لا تدر أهو هروب من أن

تمكث معها في السكن الجديد، أم تعيد البحث عن الحبيب الغائب، لم تهنأ بالنوم أو الراحة، لا بد من الوصول إلى حقيقة الأمر أين السمينة وأين محب؟ التفتت إلى بيت الغرام والصحبة مع لذة المتعة والشبع من الجنس الغائب منذ اختفاء الحبيب، السمينة تمانع من العطاء معها على الفراش والاحتكاك، لا تقدر على الجدال معها أمام إجابتها الصادمة (هذا حرام يكفى لقاء الحبيب والشبع منه وبين طيات فراشه الساخنة)، لم تتردد صعدت على درجات السلم المتهالكة، مازال الباب على حاله ينتظر القادم دائمًا ممنوع من الغلق، دارت وسط الحجرات تحسست فراشه، بارد جاف مغطى بالأتربة، لا اثر للسمينة أو محب، اثر واحد لا يغيب أبدًا ولا يمل، الملعونة صاحبة النظرات الحادة والمتطفلة مازالت تتراقص على الحائط حتى بعد إصابتها برحيل قطعة من جسدها، على حالها تتوهج وتزداد حدة في التلصص، أشارت إليها تتمنى أن تجيب سؤالها أين السمينة ومحب؟ أجابت قبل أن تسخر منها الماكرة، سأرحل إلى سكن السمينة عسى أن أجدها هناك، لم تنسى أن تنظر إليها وهى تتأرجح على الحائط كمدا وغيظ من معرفتها بمكان السمينة

***

لم تهتم بستر جسدها ومن القادم، لم تعرف كم الساعة الآن، التفتت إلى عمامة وجلباب طيب الذكر أباها، ازاحتهم تحت الوسائد، لم تهتم بالنظر إليها أشاحت وجهها وأمرتها بالدخول والإسراع بعمل ما تحبه القادمة أقداح القهوة السادة عسى أن تهدأ من أسالتها المتكررة عليها، جلسة صمت وتلاقى العيون وارتعاش الشفاه وتوتر الجسد، فشلت مع الصاحبة في فكرتها بالسعي إلى مسكنها وارتداء ملابس أباها وإحلال البركة إليها عسى أن تتوب عما تفعل، وكم من ساعات من النوم عسى أن ترى علامات الرضا من أباها أو من ملك يأتي إليها يخبرها بقبول التوبة والغفران، زاد الأمر سوء بل زاد الشوق إلى الحبيب، كادت أن تلامسه أن تهنأ معه في لحظات متعة وشهوة ولذة، حضورك أنهى الحلم الجميل وألم الفراق وضياع الحبيب، لم تلتفت إلى الصاحبة تخلع كل ما عليها من ستر، تعرفها عندما يمتلكها اليأس وتعتريها شهوة الفراش، أشارت إلى الماكرة الخبيثة المراقبة على الحائط، ركلت ملابس الشيخ الأعمى، لا تريد أن تعرف هي الأخرى ماذا ستفعل، ستشارك الصاحبة في فعلتها المجنونة المحمومة بحمى واشتعال جسدها هي الأخرى وتفرغ كل ما تخبئه للحبيب من

جسدها، ستطفو معها فوق المياه المتدفقة والتي لا تقدر على منعها من وسائد المتعة المتناثرة في أركان الغرفة

***

لن تهدأ حتى تراه وتلتقِ به وتشفى غليلها، لم تقدر على ركله وفركشة عظامه، حتى عمامته وغترة رأسه لا سبيل للوصول إليها، عاجزة عن عمل ما يحلو لها من أفعال للانتقام وصب اللعنات عليه، قبر عفن رائحة الخيانة تملئ أركانه، خصلات شعره تبعثرها الفئران فوق رأسه طمست وفى سبيل الاختفاء، لا سبيل لها في العثور عليه بين المقابر، تعجب بروحها الهائمة بين القبور وفى الطرقات، لم تستح من غباءها هي الأخرى، هو مثلها حر طليق يمرح ولكن مع من؟ إلى أين يذهب وأين مكانه، لم تجهد فكرها تعرف أين ستجده وينجح حدسها، بين النساء وأولهن ابنتها الجميلة الفاتنة، لم تنسى أن تنظر إلى جسدها وعظامه المتناثرة، لا تجد ما الذي جعلها تعود إليها اهو الحنين لتستقر وتهدأ وتترك الدنيا التي رحلت عنها أم تريد أن تطمئن على جسدها قبل أن يرحل هو الآخر، لا تريد أن ترى عظام أخرى تبرز من جسدها القاهر لشهوة الرجال المذل لكبرياء رجال نجع العرب، وأولهم زوجها الخائن كم ركع بين أقدامها يطلب المزيد من اللذة والشهوة، لم

تبخل عليه أغدقت عليه بكل ما تملك في جسدها، لم يشبع منها يريد المزيد وكان في ابنتها الجميلة العذراء، عذاب ما بعده عذاب، الابنة في أحضان زوجها الأعرابي النجس، لم تمكث في حيرة البحث رائحة الخائن تهب عليها، يمرح في الهواء مثلها،هو الآخر يبحث عن ابنتها، لن تحاسبه ستمرح هي الأخرى وراؤه، لم تعرف إلى أين يتجه ستراقبه عليها الصبر ومعرفة إلى أين يرتحل، لم تفهم لماذا هبط في هذا المكان، غرف يحتلها العنكبوت ينسج خيوطه على جميع الأمكنة، لم تلتفت إليه، تشم رائحة ابنتها بين ثنايا الوسائد وما أكثرها تفوح على الفراش ولا توجد حبيبتها ابنتها الغائبة، عليها الصبر في متابعة زوجها الخائن عسى أن تجدها، لم تعجب بدرجات السلم المتهالكة، دلفت هي الأخرى تطوف بين الحجرات، لا أنفاس ولا أناس، لماذا أتى إلى هذا المكان العفن المعزول والغائب، لم تفلح من الاختفاء عليها المواجهة، تعرف ابتسامته الساخرة، أشار إلى المعلقة علا صوته لم يكن صوت الماضي القريب هو صوت حنون بائس يرجى ويترجى أن تجيب على ما يتلو من توسل واستجداء ولمن لتلك المعلقة!! يا له من مجنون عقيم بائس خبيث زان وخائن، دلفت تبحث عن مكان تختفِ من

نظراته ولترى وتسمع ماذا يقول وهل ستجيب عليه المعلقة وركوعه أسفلها وبكاؤه:

أين ذهبت الحبيبة، تركتني ورحلت وأخذت كل ما أملك من كل شيء، لا يهم سوى قلبي الفارغ من حبها ومتعة جسدها وحلاوة بسمتها، ألا يكفى ترك أمها والركون إليها، وعذابي وحرماني وصبري على أحضان حبيبك الغائب لص القلوب وصائد الأجساد، غلبني في الحب وحرمني من اللقاء، رضيت بكل ما فعلت وما أخذت، لاتهم نقودي وجواهري وماسي، هي ماستي الوحيدة وحبيبتي الجميلة، التفت إليها تتراقص على الحائط، أنت كما أنت تنصتين وتراقبين ولا تجيب ولا ترحمين عذابي وسؤالي، سأحطم بقيتك سأنهى مهمتك كما فعلت مع قطعتك، تشاهدين هي في مكانها مهملة تكسوها الأتربة، أنقذتني من قيد الحبيبة لم تبخل في قطع قيدي وفراري وأنت تنظرين ولا تتحركين، ترقصين وتميلين يمنى ويسرا ولم تحزني حتى على قطعتك الملقاة والمهملة، لماذا لم ترحلي؟ لماذا ثابتة في مكانك ولا ترحلي؟ رحلت الحبيبة وضاع واختفى السارق حبيبها، فشل في إزاحتها من على الحائط أو كسرها، انتبه إلى الضحكات من خلفه، امرأته تسكب لعناتها عليه، لا تقدر من صفعه والثأر لها، لا سبيل إلا رنين الكلمات

لا حركات ولا إيذاء، لم تقدر بالانتقام منه هو مثلها يسبح في الهواء، لم يقدر من الفرار منها، تسبح معه تعرف إلى أين يرحل، عليها العودة إلى جسدها قبل أن يختفي بين العظام لم تنسى قبل الفراق أن تفشى له بالغباء كما كان في حياته المرآة لا ترانا!

***

لا تستطيع البكاء أو الصراخ أو الرحيل، سجينة مأسورة مطيعة لكل يد تمتد إليها، تتمنى أن يعود الماضي بما كان، أين السمينة وأين الحبيبة وأين محب؟ لا احد حولها ولا تجد من ينظر إليها ويحنو عليها بإزالة الأتربة والغبار، كل ما حولها في سبيل الرحيل والاختفاء، لم يكن لها في عمرها اخوات أو عائلة دائمًا وحيدة، لا حبيب ولا حبيبة، تتوهج مع كل طلعة شمس وأنوار المساء لم تفكر في مثل هذا الموقف وهذا الإهمال، لا احد حولها تراقبه وتتصنت عليه، متعة مختفية وغائبة تتمنى عودتها وإن كانت ذكريات أمنية متواضعة لا تبحث عن أناس آخرين، هي تحبه وتشاركه المتعة مع صاحبتاه عشاق فراشه الساخن الملتهب، الأمل لم يرحل بعد تراقب من هو قادم، تنصت إلى الخطوات البعيدة والقادمة، رحلوا من وقت غير بعيد، آخر ما رأت غسيل الأعرابي على

يد السمينة وكفنه، كم شاركت السمينة في التشفي منه، تصب عليه الماء البارد ويلف بالخرق من القماش القديم، يا لها من سعادة شعرت بها أحوال الأعرابي الأخرق المغتصب للصاحبة الصغيرة، كم استمعت إليها وهى تشكو حالها من الزنا معه وعلى بعد خطوات من أمها امرأته الصاغرة لأحوال نجع العرب هو عرفهم قانون وضع لهم بيد شيطان يؤازرهم ويقف معهم ويحميهم، عرفت الكثير من خبايا هؤلاء النفر من الصاحبة ولكن أين هم الآن الجميع في غياب واختفاء وضياع، ما عليها إلا الصبر والترقب لما هو آت، انتفضت من على الحائط تكاد أن تسقط وما هذا الصوت القادم وليس من بعيد صفير وأصوات هل صوت عربة إسعاف أم المطافئ أم ماذا؟ كم استمعت وهى بين أيادي صناع بني جنسها عن من أصابهم حسن الطالع أن يضعن في العربات تجوب البلاد ويرحلن في سياحة، كم كانت فرحتهم بوصول مثل هذا الصفير وتلك الأصوات وهؤلاء الرجال، التفتت إليهم هم كما هم في لقاء استلام الزميلات المتوهجات بفرحة الاستلام وركونهم في العربات، ملثمين لا ترى إلا أعين جاحظة وأردية سوداء، دهسوا الغرف، هتكوا الساترة والوسادات، لم يبقوا شيء على حاله، يبعثرون ويدهسون ويبحثوا بين الأدراج وثنايا الفرش،

مشهد لم تراه من قبل هي بمشاهد الحب والمتعة وشهيق الأنفاس تحيا وتعيش وتستمتع، من هؤلاء الغرباء كم هم قساة لا يرحمون الوسائد تحت أرجلهم ما عليها إلا الصبر والسكون حتى يرحلوا وتهدأ وتعرف لماذا جاءوا وعن ماذا يبحثون، محب والسمينة والصاحبة عرفت الآن سر اختفاؤهم ورحيلهم، يبحثون عنهم أم عن الأعرابي الزاني بابنة امرأته سارق الذهب والفضة والماس والاموال، لم يعجبها النظرات الحادقة بها، عين ثاقبة شريرة تشعر باقتراب شيء ما منها، يا ترى سيأتي لخلعها من على الحائط أم ماذا يفعل بها؟ التفتت إلى قطعتها الملقاة بجانب الحائط كم هي في هدوء واسترخاء حتى أقدام هؤلاء لم تمسها بضرر، تتمنى أن تلقى بجانبها تلتقى بها تؤانسها من وحدتها وعذابها على الحائط، سعدت واستراحت إلى صوت طلقات تخرج من فوهة احدهم تتجه نحوها

***

لم يهدأ من البحث والدوران ذهابا وإيابًا بشوارع محطة مصر وبين عربات الملابس المستعملة، لا يعجبه شيئا ولو حتى بقليل من الإعجاب، رائحة الموت تحوم بين ثنايا الملابس، بقع الزيت والدماء مازالت أثارها واضحة ورائحتها المنفرة، لا مفر من الذهاب والشراء وتجاهل نظرات فحص

ملابسه الرثة من بائعي المحلات المختفية والغائبة، سيخرج النقود قبل الشراء عسى أن تصد من النظر أليه، لن يطيل في الاختيار والتأني في الأمثل والأحلى والأمتن، كفى من الهرولة بين محلات شارع ابن الخطاب هرولة ليست هرولة الحجيج سبع مرات، تعدى العشرين مرة من الهرولة ولا سبيل له من رمى الجمرات، نقوده وان كانت متواضعة، التفت إلى الملابس النسائية وتوهج الأضواء حولها، تبهر أمثاله من الرجال وعليه التوقف والتأمل والسباحة في ذكرياته الفائتة، كم هي فاتنة على جسد السمينة والصاحبة، لن يمر مر الكرام أمام الأحمر والأسمر والأصفر يتمنى أن تلامس أصابعه أن يضغط عليها أو يشم رائحتها وما بها من رائحة الحب الغائب والمختفي، هل عليه أن يحطم زجاج العرض ويخطف إحداهن ويسرع ليراه على جسد الصاحبة والسمينة، أين اختفوا أم هو المختفي والغائب والجبان، ما الضير من الشراء والإسراع إلى غرفته ودرجات السلم المتهالكة لن يمل من الذهاب إلى سكن السمينة وحارتها الضيقة والأنوار الخافتة، ستعلو همته حتى إلى الذهاب إلى نجع العرب ومواجهة الأعرابي زوج أم الصاحبة، لا سبيل في الشراء مازال في حيرة من أمر الاختيار لا شيء يعجبه من المعروضات ولا يصبر في تأمل البائع لحالته

وملابسه الرثة، عليه الخروج إلى الهواء الطلق كفى ما عانى من عذاب غرفته المغلقة ذات المزلاج الصدأ ذو الصوت الذي يقشعر منه البدن التفت إليها لم يجدها على الحائط المختفي والغائب عنه، يشعر بفرحة غياب الماكرة الخبيثة والحاقدة، كم يكره النظر إليها ونظراتها إليه، مراقبة إلى كلماته بين الجدران والبوابة الحديدية ومتابعة لخطواته وخطوط قلمه على الصفحات المتناثرة من حوله والمختفية بين فرشته التي لم تبرد أبدًا هي دائمًا ساخنة عطنة مُنفرة من رائحة النوم وأشعة الشمس المختفية، التفت إلى ملابسه الرثة ولونها أهو أزرق أم أسود أم داكن الزرقة لا يدرى ولا يميز ولا يطيل بالنظر إليها هي سوداء على أم رأسه وعلى جسده وعلى حياته والاقتراب من نهايتها، لن يتراخى في لملمة صفحاته الورقية وترتيبها وتسويتها في هذا اليوم وهذه الساعة، نظر إلى السمينة والصاحبة المختفية لم يملوا، يبحثان عنه في الحواري وبين الأزقة والشوارع المختفية والغائبة، لا سبيل أن يصل نداؤه إليهن، ولا حتى تفيد أصابعه المهتزة في لفت أنظارهن إليه، هن مازلن يبحثن عنه، السمينة دائمًا في مقدمة المسيرة تتبعها الصاحبة، لم يطمئن عليه متابعة مسيرتهم والبحث عن العدو اللدود الأعرابي زوج أم الصاحبة الراحلة والمختفية، كم يشعر

باختفاء الجميع، شوارع وحواري وأناس وعائلة حتى كيسة نقوده لا يراها مختفية هي الأخرى كما اختفت غرفته وكتبه ومؤلفاته حتى أسماء الزملاء بعمله وأماكنهم وعناوينهم، لم يستقر معه غير صاحبات الأجساد اللينة الفائرة في متعة الليل والنهار، مازلن يتابعن في البحث عنه والعثور عليه، لن يمل هو الآخر في اقتفاء أثارهن عسى أن يجمع الشمل وتعود الأيام والليالي الساخنة، التفت إلى مسكنه ماذا حل به اهو زلزال أم لصوص جاءوا للسرقة أم جاء الأعرابي للبحث عنه عسى أن يجد عشيقته أو ينتقم منه، الأحزان كلها تحل عليه تسيطر على أنين قلبه تهزه، السمينة والصاحبة يبحثن عنه بين الغرف، لم يلتفتوا إلى الخراب الذي حل في كل الأمكنة، كاد أن يهوى جسده ولكن إلى أين، فراش ملتصق بالأرض الرطبة، إلى أين يهوى به؟ يخترق الأرض الإسمنتية الصلبة ويهبط ولكن السؤال إلى أين؟! هو وغيره من نزلاء الجبر والقهر والاختفاء، اشاراته السرمدية يتمنى أن تذهب إليهن، مازال الفراش لم يعبث به ويهتك، اصعدوا على فرشتي ادفئوا بذكرياتي وحنيني وهمسي ولمسي ومُتعتي، جن عقله الماكرة والخبيثة المتسلطة مختفية من الحائط أيدي السمينة والصاحبة تلتقط جسدها من على الأرض، عشيقاته يرقصن ويقذفوا

بجسدها بين الغرف وفى الأركان المختفية والغائبة، هل سقطت وتناثرت وافترقت من غيابه وإشباع رغبتها في المراقبة والتجسس عليه ام ماذا حل بها؟ التفت إلى السمينة تشير إلى الصاحبة ماذا وجدت، بركت الصاحبة على الأرض تبكى وتفصح للسمينة بالسر المؤلم والحزين، مقذوف طلقة حكومي ليست مثل ما كان يحمل زوج أمها الأعرابي من طلقات، لم تقدر السمينة من كتمان صراخها واحتضان الصاحبة، قفز منتصبا يصب العرق عليه صبا، يريد إخبارهن انه يحيا ويعيش ويتنفس دق جدار غرفته بكلتا يديه، لا سبيل للوصول إليهن، تراخت اكفه وسيقانه من الصراخ والدق، لست بميت أنا موجود وسأصل إليكم لا ترتعشوا ولا تيأسوا...

انتبه إلى المزلاج المزعج والخطوات القادمة، لم يدرى كم الساعة لا يعرف الوقت إلا بالإنارة الخافتة والمتواضعة تشعل بأوامر وتطفئ بأوامر، عليه الوقوف للقادم والخضوع والخنوع المناسك التي تعلمها بين هذه الجدران، كفى ما عانى في أيامه الأولى بها وعذابه في تعلم خطوات الذل والمسكنة والانصياع للأوامر عليه الآن انتظار من هو القادم وخطواته البطيئة في فتح المزلاج وزحزحة الباب الحديدي، التفت إلى الرقيب القادم إليه، لم يأتي إليه بوجبة العشاء المتواضعة

والخبز العفن، شيء آخر في يديه بذلة حمراء ومرآة ناصعة التوهج واللمعان، تلقى الخبر بهدوء وثبات أعصابه ولا يبالى بالصوت الخشن يعلنه قد حان أن تلبس البدلة الحمراء فغدا يومكم الموعود والذهاب إلى الإعدام، كانت ابتسامة الرقيب تملأ وجه، هو أيضًا كان مبتسم يشعر بانتهاء كل شيء، نظرا إليه يعلقها على الحائط يخبره عليك أن ترتدي البدلة الحمراء فهذه ليليتك ليلة ولا كل الليالي، لم يتركه حتى أكمل ارتداء بدلته الحمراء، لم ينبس بأي الكلمات أمامه انتظر حتى رحل بعد أن أحكم غلق المزلاج بصوته الذي يقشعر منه البدن، التفت إلى المعلقة فقد حانت ساعة الوداع وعليه أن يشفى غليله منها ومن عداوتها له ونظراتها الخبيثة إليه، عليه الآن يتلو حديثه السرمدي، تتخبط كلماته بين الجدران الرطبة ولونها الرمادي الكئيب:

أنا المحب والعاشق والزاني هي حياتي التي أحياها ولا أحب أحد أن يتدخل في أفعالي وحبي وعشقي لكل ما هو جميل وأحبه لم أحاسب على هذه الأشياء؟! عجيب يا وطن ترى كل المفاعيل وكل ما يؤدى إلى المهالك والضياع والخراب، لصوص وخونة وعملاء لكل من يريد أن يغتصب الوطن، أشار إليها تعرفين لماذا أحضرك الرقيب؟ لن أجد إجابة ولا

أسمع لك صوتا كما في الماضي الغائب والمختفي، تنصتين وتراقبين كل خطواتي لم تستحِ من حبي وسمينتي لماذا أنا لماذا أنا؟! أين هؤلاء القوم الخادعين لكل ما هو طيب ونافع وصالح، لماذا أيتها الحقيرة الخبيثة الماكرة، تهرولين ورائي دائمًا، اتيت اليوم لتشاهدي ليلتي الحمراء لن تكون سوداء، هي حمراء بلون الدم ورائحة الظلم وعمى القوم، سأرحل هناك سأنتظر اللقاء وسيشفى غليلي وانتقم من هؤلاء الجبناء، أنا لست بصعلوك أنا إنسان أحب احيا الحياة كما أشاء ضري لنفسي وخيري للناس حياتي كلمتي ومناسكي فكرتي وعقديتي لي وحدي سأرحل وسيأتي غيري وغيري، ألا تعلمين أني أشم رائحة الفكرة وعناد المبدأ وصبر الرجال، تعلقين على حائط كم اسند عليه رؤوس وكم سكبت عليه دماء وكم صم من صوت العذاب، أشار إلى صفحاته وأوراقه، الآن انهى رحلاتي الغائبة والمختفية، لم يقدر أحد من إسكات فكرى والخوض في عقلي وسماع أنين قلبي، الآن أنهي قصتي ويأتي من يكتب بعدى ويكمل رسالتي وروايتي، خلع الماكرة من على الحائط ابتسم لها وأكمل حديثه السرمدي:

سأنهي عمرك لن تكوني مرآة كما كنت ستكونين ورقة من ضمن صفحاتي، اخرج قلمه الأسود وضعها فوق صفحاته كتب عليها بالخط العريض. (((تمت)))

// تمت //

محمدعزام

الإسكندرية